فإذا تحولنا إلى الشق الثانى من الآية الكريمة : « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب » استطعنا أن نتبين للوهلة الأولى أننا بصدد الصفتين المتقابلتين على غرار الصفتين المتقابلتين فى الشق الأول ، أعنى السيئة والحسنة . وهاتان الصفتان هما مغفرة الله تعالى ذنوب عباده ، وعقوبته الشديدة . على نحو ما أشار إليهما قوله تعالى فى سورة المائدة : « اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم »(١) . أو الرجاء والخوف المعتدلان فى الآية الكريمة(٢) أو التخويف والارتقاب بعد الترجية(٣).

ومعنى : « على ظلمهم » أى مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب . ومحله الحال بمعنى ظالمين أنفسهم . وفيه أوجه : أن يريد السيئات المكفّرة لمجتنب الكبائر ، أو الكبائر بشرط التوبة . أو يريد بالمغفرة الستر والإمهال(٤). يقول الطبرى(٥): « يقول تعالى ذكره : وإن ربك يا محمد لذو ستر على ذنوب من تاب من ذنوبه من الناس فتارك فضحيته بها فى موقف القيامة ، وصافح له عن عقابه عليها عاجلا وآجلا . على ظلمهم ، يقول : على فعلهم ما فعلوا من ذلك بغير إذن لهم بفعله . وإن ربك لشديد العقاب لمن هلك مصراً على معاصيه فى القيامة ، وإن لم يعجل له ذلك فى الدنيا أو يجمعهما فى الدنيا والآخرة . وهذا الكلام وإن كان ظاهره ظاهر خبر ، فإنه وعيد من الله وتهديد للمشركين من قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن هم لم ينيبوا ويتوبوا من كفرهم ، قبل حلول نقمة الله بهم » . قال ابن عباس : ليس فى القرآن آية أرجى من هذه(٦). قال القاسم بن يحيى وقيل : ليغفر لهم الظلم السالف بتوبتهم فى الآنف . وقيل : ليغفر السيئات الصغيرة لمجتنب

---

(١) آية : ٩٨ .
(٢) تفسير ابن كثير : ٢-٥٠١ .
(٣) البحر المحيط : ٥-٣٦٧ .
(٤) الكشاف : ٢-١٥٩ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٣-٧٠ .
(٦) البحر المحيط : ٥-٣٦٧ .

الكبائر . وقيل : ليغفر لهم بستره وإمهاله فلا يعجل لهم العذاب مع تعجيلهم بالمعصية(١) وقال سعيد بن المسيب : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لولا عفو الله ، ومغفرته لما هنأ لأحد عيش . ولولا عقابه لا تكل كل أحد(٢) وفى حديث آخر : إن العبد لو علم قدر عفو الله لما أمسك عن ذنب . ولو علم قدر عقوبته لقمع نفسه فى عبادة الله عز وجل(٣) .

وإذا كانت هذه الآية الكريمة قد أشارت فى إجمال إلى استعجال كفار مكة من الرسول السيئة قبل الحسنة بمعنى العقوبة والنقمة قبل العافية . والشر قبل الخير . والعذاب قبل الرحمة . والبلاء قبل الرخاء ، فإن الآية الكريمة التالية تسير فى الاتجاه ذاته وتدل على حرص القوم الكافرين على الوصول إلى النتيجة السيئة ذاتها ، وكأنها بمثابة التطبيق العملى لاستعجال الكافرين السيئة قبل الحسنة . قال تعالى : « **ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه . إنما أنت منذر ولكل قوم هاد** » . إن كفار مكة على يقين من أنفسهم قبل سواهم ، بأنهم ليسوا جادين بشأن المعجزات المادية التى طلبوا من الرسول الكريم تحقيقها . لأنها لو تحققت فإن مصيرهم هو الإبادة الشاملة ، لأنهم لن يؤمنوا . إنهم يعلمون ذلك علم اليقين ومع ذلك هم يطلبون تلك الخوارق المادية ، التى يقل ما يمكن تحقيقه منها قدرة عن قدرة القرآن الكريم الفائقة ، على إرضاء كل عقل وإشباع كل نفس . إنهم إذا كانوا قد رفضوا الانصياع للمعجزة التى هى من جنس ما نبغوا فيه ، وهى القرآن الكريم ، فكيف لا يرفضون الانصياع للمعجزات المادية الأخرى التى هى بعيدة عن ميادينهم ، بقدر اقتراب القرآن الكريم منها . ولكن القوم مستهزئون كما عرفنا .

---

(١) البحر المحيط : ٥-٣٦٧ .

(٢) البحر المحيط : ٥-٣٦٧ . وانظر القرطبى ، ٣٥١٤ وابن كثير ، ٢-٥٥١ .

(٣) البحر المحيط : ٥-٣٦٧ .

ولكن القوم كافرون . وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة فى صدرها : « ويقول الذين كفروا » وكأن هذه الصفة اللاصقة بالقوم ، بمثابة التعليل لهذه المقترحات ، ذلك التعليل الذى سبق أن ألمحت إليه الآية الأولى فى القسم : « أولئك الذين كفروا بربهم » ويمكن أن يكون المعنى أن هؤلاء القوم قد كفروا بلقاء ربهم لأنهم كفروا بقدرته على إعادة الحياة إلى الخلائق ، رغم أنهم يعترفون بأنه تعالى موجد كل شىء من العدم .

وهؤلاء الكفار يظنون أنهم بمقترحاتهم هذه يحسنون صنعا ، بينما هم الأخسرون أعمالا ، لأن المعجزات التى يأتى بها رسل الله تعالى لا يأتون بها من عند أنفسهم ، إنما بإرادة الله تعالى ، الذى يعلم ما يوافق طبيعة البشر وطبيعة كل جماعة من الجماعات . وحينما يطلب كفار مكة أو سواهم من رسولهم أن يأتى بمعجزات معينة ، وحينما يقول كفار مكة ، هلا أنزل عليه آية من ربه ، كالعصا واليد والناقة وما إلى ذلك ، يكون معنى هذا أنهم يجهلون أن هذا الطلب مخالف للسنن والنواميس ، وفوق هذا هو لا يحقق مصلحتهم ، لأن الأنسب لكفار مكة مثلا ، أن تكون معجزة الرسول الكريم بيانية ، لأنهم أرباب البيان . وإذا كان القرآن الكريم يحقق لهم ذلك ، فما الذى يمكن أن يفهم كفار مكة فيما لو تحققت مقترحاتهم المادية ، التى أشارت إليها مثلا سورة الإسراء وسورة الفرقان.؟ إنهم لن يفهموا شيئاً ، وبذلك يتبين أن المصلحة فى كون المعجزة من جنس ما نبغت فيه أمة الرسول ، كى تكون الحجة قائمة ، وكى يكون التحول إلى طريق الخير والفلاح ، عن اقتناع ويقين سهلا ميسوراً . إن هذه هى النتيجة التى انتهى إليها مثلا كل صاحب عقل راجح ونفس صافية من قوم موسى عليه السلام الماهرين فى السحر ، لأن معجزاته عليه الصلاة والسلام ، وعلى رأسها العصا واليد ، من جنس ما نبغوا فيه . وإن الشىء ذاته يقال عن قوم عيسى عليه السلام ، الماهرين فى الطب ، وقوم محمد صلى الله عليه وسلم ، فرسان البيان وأئمة الفصاحة . ومن منا الذى يجهل فعل القرآن الكريم بالنفوس عند تلاوته أو سماعه . وإن من أكبر الأدلة على ذلك ارشاد القرآن الحكيم للرسول الكريم فى سورة الإسراء ، إلى طريقة وسط ، يرتل فيها القرآن الكريم ترتيلا ،

كى يتيح الفرصة للمكيين الخائفين من بطش قريش ، أن يجمعوا بين تحقيق ، رغبتهم فى الإصغاء للقرآن الكريم ، أثناء ترتيل الرسول الكريم له فى المسجد الحرام ، وبين التظاهر بعدم الإصغاء درءاً لبطش قريش بهم . قال تعالى : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا »(١) .

وثمة رابطة تربط هذه الآية الكريمة بما سبقها من آيات الأقسام ، هى رابطة التقابل فى الصفات ، أو ثنائية المعانى . قال تعالى: « إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » فنحن بصدد الإنذار الذى ذكر صراحة، ويكون من نصيب الكافرين . وبصدد الهداية ، التى هى ثمرة الإنذار ، والتى يرتبط بها التبشير ، الذى هو من نصيب المؤمنين . فكأننا بصدد ذكر المؤمنين والكافرين ، ذكر البشارة والإنذار . ويبدو ذلك جلياً من الوقوف على معنى هذا القسم من الآية الكريمة . إنه يحصر مهمة الرسول الكريم فى الإنذار ، بواسطة المعجزة التى اختارها الله تعالى له ، وليس بواسطة المعجزات المادية التى يقترحها كفار مكة . ويضيف بأن القرآن الكريم ، قادر بعون الله تعالى ، قدرة معجزات الرسل السابقين ، على القيام بهذا الدور والوصول إلى هذه النتيجة الحميدة ، نتيجة الهداية إلى الصراط المستقيم . ويفهم ضمنا أنه لو فرض أن الرسول ذا المعجزة لم يتبعه أحد من قومه ، لاتخذ هؤلاء القوم منه ، هذا الموقف ، مهما تنوعت المعجزة أو تعددت ، لأن الجحود متمكن من النفوس ، والعنت مستقر فى العقول . فإذا كان هذا القول « إنما أنت منذر » خاصاً بالرسول الكريم ، فإن هذا القول المبين له « ولكل قوم هاد » شامل لكل رسول ، لأن الوظيفة الطبيعية لكل رسول ، أن يقوم بمهمة التبشير والإنذار ، وقد شاءت إرادة الله عز وجل ، أن تكون معجزة كل رسول ، قادرة بطبعها على الوصول إلى هذه النتيجة الحميدة ، بشأن أصحاب العقول الراجحة والنفوس الصافية . وحينما يكون كل رسول كريم بعثه الله تعالى إلى أمة من الأمم ، أو قوم

---

(١) الإسراء : ١١٠ .

من الأقوام ، قادراً ، بعون من الله تعالى وتوفيق ، على الوصول إلى الغاية ، وهى الهداية ، فذلك معناه ضمنا أنه قادر على الوسيلة وهى الإنذار .

ولعلنا لاحظنا أن التسلية قوية فى هذه الآية الكريمة ، التى تجعل الوسيلة أو الإنذار ، مهمته صلى الله عليه وسلم . عليه أن يجتهد فى البلاغ ، وعلى الله تعالى الحساب . والأمر من قبل ومن بعد له عز وجل . فلا ينبغى للرسول الكريم أن يحزن لانصراف قومه عنه ، فضلا عن إهلاكه نفسه بسبب ذلك الحزن . ولعلنا لاحظنا أيضاً ، أن ذلك الإنذار واضح فى الآية الكريمة وضوحاً بينا ، لأن المعنيين بالحديث هم كفار مكة الكافرون بلقاء ربهم وبقدرته عز وجل . على إعادة الحياة إلى الخلائق مرة أخرى . وإن المناسب للقوم الإنذار الذى أولته الآية الكريمة عنايتها .

وإذا كنا قد استأنسنا بشأن موقف كفار مكة الدال على حمقهم وسفههم بما جاء عنهم فى سورة الأنعام ، حيث إنهم يستعجلون العذاب ، ويطلب إلى الرسول الكريم أن يبين لهم أنه ليس لديه ما يستعجلون به ، لأن الفعال فى الأمور كلها هو الله تعالى ، فإن شاء رحم وإن شاء عذب . فالملاحظ أن السياق بعد ذلك يشير إلى بعض مظاهر علم الله تعالى وقدرته ، أن جعل القرآن الكريم آية هذا الرسول الكريم الدالة على صدقه ، لأنه سبق فى علمه عز وجل أنها هى الآية النافعة بشأنهم ، ومن ثم يتحول السياق إلى تعداد بعض مظاهر علم الله تعالى ، كى يستدل القوم بما يشاهدون ويعرفون على علم ما هم فى شك منه . وحينما لا تتحقق المعجزات المادية التى طلبوا ، وحينما لا يحل بهم العذاب ، يكون ذلك مظهراً من مظاهر رحمة الله بعباده ، لذا فإن السياق يتحول إلى تعداد بعض مظاهر قدرة الله تعالى . إن العلم والقدرة يعنى بهما السياق عناية بالغة . جاء فى سورة الأنعام قوله تعالى : «قل إنى على بينة من ربى وكذبتم به ، ما عندى ما تستعجلون به ، إن الحكم إلا لله ، يقص الحق وهو خير الفاصلين . قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم ، والله أعلم بالظالمين . وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها

إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين . قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون . قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ، انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون . وكذب به قومك وهو الحق ، قل لست عليكم بوكيل . لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون »(١) .

إن العلم والقدرة يعنى بهما القسم التالى من سورة الرعد الكريمة عناية بالغة . فإلى القسم الرابع .

---

(١) الآيات : ٥٧ – ٦٧ .

القسم الرابع

من مظاهر علم الله تعالى وقدرته

الآيات (٨-١٦)

قال تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلامرد له وما لهم من دونه من وال . هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعا وينشيء السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته . ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال . له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى المـاء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال . ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال . قل من رب السماوات والأرض قل الله . قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا . قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور . أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » .

تبينا بشأن القسم السابق أن كفار مكة قد انصرفوا عن القرآن الكريم معجزة الإسلام الكبرى الخالدة ، مطالبين بمعجزات أخرى مادية أقل ما يقال عن بعضها الذى يصح حدوثه عقلا ، إنها محدودة بزمن معين ومكان معين وجماعة معينة . لقد شاءت إرادة الله تعالى ، رحمة بعباده ، أن يكون نوع معجزة الرسول إليهم أكثر أنواع المعجزات قدرة على أن تحملهم على سلوك سبيل الهدى . وحينما تصر جماعة من الجماعات على رفض معجزة بعينها وطلب معجزة أخرى أو معجزات يكون معنى ذلك أن القوم ، الذين

يتخذون تلك الطلبات التى لم تتحقق ، عذراً لانصرافهم عن الحق ، مصرون على رفض دعوة ذلك الرسول ، بدليل أن كل الأمم السابقة التى رفضت معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها ، وطلبت معجزات أخرى تحققت فعلا ، قد أصرت على عنادها واستكبارها فدمرها الله تعالى تدميرا إلا قوم يونس ، على نحو ما أشارت الآية الثامنة والتسعون من سورة يونس . وبهذا يتبين أن من أوضح المعانى التى يريد القسم الثالث من السورة تأكيدها ، العلم المطلق للذات العلية ، التى لا يخفى عليها شىء فى الأرض ولا فى السماء ، والقدرة المطلقة للذات العلية أيضا فليس رفض تحقيق طلباتهم إلا رحمة بهم. فقد شاءت إرادة الله تعالى ، إكراماً لخير خلق الله تعالى ألا يستأصل شأفة قومه أو أمته . أما أن القوم لا تستأصل شأفتهم ، فلأنه عليه الصلاة والسلام فيهم . وأما أن أمته لا تستأصل شأفتها ، فلما خصت به هذه الأمة المحمدية من الاستغفار . وإلى هاتين الحالتين أشارت الآية الكريمة من سورة الأنفال قال تعالى : « **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم . وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** »(١) . وبإنعام النظر فى سورة القمر يتبين أن حظ المكذبين السابقين العذاب الأليم ، أما كفار مكة فإن العذاب الأليم يوم القيامة إضافة إلى هزائمهم الساحقة أمام المسلمين . قال تعالى(٢) « **أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر . أم يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر** »(٣) .

لقد ارتبطت الآيات المتقدمة فى هذا القسم ببعض مظاهر علم الله تعالى . قال عز من قائل : « **الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله . إن الله لا يغير**

---

(١) آية : ٣٣ .

(٢) القمر : ٤٣ - ٤٦ .

ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » .

ولما كان كفار مكة ، كما أشار القسم السابق ، يطلبون أن تنزل على الرسول الكريم آيات من السماء ، ولما كانوا يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، ومن مظاهر ذلك أن يمطرهم الله تعالى بحجارة من السماء بدل الماء ، أو أن ينزل عذابه الأليم بدل رحمته جل وعلا ! ، فقد عرض هذا القسم الرابع بعض مظاهر قدرة الله تعالى المتعلقة بالسماء من زاويتى الخوف والرجاء ، الهلع والطمع . قال تعالى : « هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشىء السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال » .

ولما كانت النتيجة الطبيعية لانصراف كفار مكة عن الرسول الكريم والقرآن الحكيم ، أن يشركوا مع الله تعالى سواه ، فقد عرض هذا القسم لهذا الخطأ وأوضح البديل الصحيح . وقد مهد له بالقول المتعلق بآيات السماء فى القسم « وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال » . فقد جاء بعد ذلك مباشرة قوله تعالى : « له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال . ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ، قل من رب السماوات والأرض . قل الله . قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا . قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور . أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم . قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار » .

فمع الآية الكريمة الأولى . قال تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شىء عنده بمقدار » .

لو أننا نظرنا إلى القسم الأول من الآية الكريمة « الله يعلم ما تحمل كل أنثى » فى ضوء الإشارات المتعددة فى القرآن الكريم ، إلى أن التزاوج أو الذكر والأنثى عبارة عن قانون عام ، من الجائز أن يقال عنه إن هذا الوجود يقوم عليه . وذلك مثلا فى ضوء قوله تعالى فى سورة يس : « **سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** »(١) لصح أن يقال إنه يجوز أن يشمل أنثى الإنسان وأنثى الحيوان . وإن الشىء ذاته يمكن أن يقال عن القسم الثانى الذى يتحدث عن غيض الأرحام وزيادتها « وما تغيض الأرحام وما تزداد » ولو أننا نظرنا إلى ذلك القسم الأول من زاوية الذين يعنيهم الحديث فى المقام الأول ، وهم كفار مكة ، الذين يراد تنبيههم إلى علم الله سبحانه وتعالى المطلق ، بالإنسان الذى أنزل من أجله القرآن ، لصح أن يقال إنها تتحدث عن أنثى البشر بخاصة . ويبدو أن هذا هو الذى استرعى انتباه المفسرين .

وفى ضوء هذا الفهم ، يمكن أن يقال إن الحديث عن الإنسان من هذه الزاوية يجئ إثر الحديث عن عدد من آيات الله الكبرى الدالة على قدرته المطلقة عز وجل ، كالسماء والأرض ومافيهن . وذلك دليل على القيمة الغالية لهذا الإنسان . وكيف لا تكون قيمة الإنسان كذلك . وهو الذى سخر الله تعالى له السماوات والأرض وسخر له ما فيهن . والسياق يشير إلى علم الله تعالى المطلق ، الشامل لكل حالة من حالات الحمل فى هذا الوجود . وللعلماء آراء ثلاثة بشأن « ما » فى قوله تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وماتغيض الأرحام وما تزداد » . فهى إما أن تكون موصولة بمعنى الذى ، جاء فى الكشاف(٢) « فإن كانت موصولة ، فالمعنى أنه يعلم ما تحمله من الولد على أى حال هو من ذكورة وأنوثة وتمام وخداج وحسن وقبح وطول وقصر وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترقبة » أو مصدرية بمعنى حمل

---

(١) آية : ٣٦ .

(٢) ٢-١٦٠ .

كل أنثى وغيض الأرحام وازديادها(١) أو استفهامية ، مبتدأ وتحمل خبره(٢) ويلوح أن القول بأن « ما » يمكن أن تكون استفهامية ، أضعف الآراء الثلاثة . وإذا كنا قلنا من قبل ، بشأن الحديث عن السماوات والأرض فى القسم الثانى « الله الذى رفع السماوات » ، « وهو الذى مد الأرض » بأنه يعنى ضمنا أن المستحق للعبادة هو هذا الإله الخالق المدبر ، فإن الشىء ذاته يقال هنا بشأن علم الله تعالى المطلق ، الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . إننا نحن البشر ، كى نصل إلى العلم بشأن بعض حالات اشتباه الحمل ، نبذل الكثير من المحاولات المضنية ، وبخاصة فى مراحل الحمل الأولى . وإن مثل هذه الحقيقة ، تحمل كل منصف فى نظره وتدبره على تقدير علم الله تعالى المحيط بكل حالات الحمل التى قلنا ، بشأن الآية الكريمة ، إنها يصح أن تشمل جنس الإناث اللاتى يصح فى حقهن أن يقال إنهن يحملن . وإن أهم مظاهر تقدير هذا العلم أن يعبد الله تعالى وحده لا شريك له حق العبادة .

وإذا كان هذا القول : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى » يعرض لمراحل الحمل المبكرة وطبيعته من ذكر وأنثى ، وواحد ومتعدد ، صبيح وقبيح ، صالح وطالح ، والتى إذا سارت فى طريقها المعتاد ، أدت فى النهاية إلى خروج الجنين فى حينه ، فإن القول بعد ذلك : « وما تغيض الأرحام وما تزداد » يشير إلى المراحل المتأخرة ، والتى تقع بين مرحلتين ، طرفها الأول يتضمن الفترة التى يتكون فيها الجنين ، فلو خرج فى أثنائها لكان خداجا. وطرفها الثانى يتضمن الفترة التى تزيد على مدة الحمل المقررة ، وهى تسعة أشهر . وحول هذه الفترة الزائدة الأكيدة ، خلاف بين العلماء فى تحديدها . فإن مدة الحمل إذا صح أن تكون أقل من تسعة أشهر ، فإنها قد تكون أزيد عليها « إلى سنتين عند أبى حنيفة ، وإلى أربع عند الشافعى . وإلى خمس عند مالك . وقيل إن الضحاك ولد لسنتين . وهرم بن حبان بقى فى بطن أمه

---

(١) انظر الكشاف : ٢-١٦٠ .

(٢) انظر البحر المحيط : ٥-٣٦٩ .

أربع سنين . ولذلك سمى هرما »(١) « وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر . وأن عبد الله الملك بن مروان ولد لستة أشهر »(٢) .

وبين هذين الطرفين المتباعدين ، النقص والزيادة ، يقع الجزء الأوسط الطبيعى الذى قلنا بشأنه أن الأمور سوف تنتهى إليه ، فيما لو فرض أن الحمل الذى أشار إليه صدر الآية الكريمة ، قد سار فى خط سيره الطبيعى .

ويتبين التلازم بين الزمن وبين طبيعة الجنين فقد قال ابن عباس(٣) : « تغيض . تنقص من الخلقة ، وتزداد تم » . قال الضحاك « غيض الرحم أن تسقط المرأة الولد . والزيادة أن تضعه لمدة كاملة تامة »(٤) وعن الضحاك أيضا : « الغيض النقص من تسعة أشهر والزيادة إلى سنتين »(٥) .

والذى يجعلنا ننتهى إلى أن الزيادة التى أشارت إليها الآية الكريمة : « وما تغيض الأرحام وما تزداد » تعنى الزيادة عن التسعة الأشهر ، وليس الزيادة عن الغيض إلى أن تصل إلى مدة الحمل المعروفة ، هو أن هدف الآية الكريمة تبيين ما يحتاج إلى تبيين ، بشأن علم الله تعالى المحيط بدقائق هذه الأمور . ومن أدق هذه الأمور العلم بشأن غيض الأرحام الذى قد يكون قريباً من بداية الحمل ذاته والعلم بزيادتها عن المدة المقررة ، تلك الزيادة الثابتة لدى علماء الإسلام(٦) .

---

(١) الكشاف : ٢-١٦٠ .

(٢) تفسير القرطبى ٣٥١٥ وقد أشار إلى أن أكثر الحمل يصل بل يزيد عن عشرة أعوام . انظر ص ٣٥١٦ .

(٣) البحر المحيط : ٥-٣٦٩ .

(٤) البحر المحيط : ٥-٣٦٩ .

(٥) البحر المحيط : ٥-٣٦٩ .

(٦) تنبيه إلى علمى أن علماء الغرب لا يعترفون بهذه الزيادة عن التسعة الأشهر . فقد أفادنى أحد الإخوة الذين حضروا فى الغرب رسالة لدرجة عالية فى موضوع له علاقة بهذه الحالة ، أن مثل هذه الزيادة أمر غير معترف به هنالك . ويبدو أن التحلل الذى يعيشه الغرب المسادى هو الذى يجعله يفسر كل حالة زيادة بالمعنى السيىء الذى ينبغى فى نظره أن تفسر به ، ما دامت قد تجاوزت المدة المقررة . لقد أفادنى هذا الزميل بأن استاذه القانونى قال له بشأن هذه الزيادة عن التسعة الأشهر : إن مثل هذه الحالة ليست موجودة لدينا وليس معترفاً بها .

ومما يجعلنا نفهم الزيادة فى الآية الكريمة بأنها تعنى ما زاد على التسعة الأشهر ، هو أن من أهم ما تعرف به سورة الرعد المباركة التقابل فى الصفات ، وها نحن أولاء ، نصادف هذه الظاهرة فى الآية الكريمة« وما تغيض الأرحام وما تزداد » ولما كان المراد بالغيض ما نقص عن التسعة الأشهر فيرجح إذن أن المراد بالزيادة ما زاد عن هذه التسعة الأشهر . والله تعالى أعلم .

وفيما يتصل بالغيض ، هو يشمل كل الفترات التى تقل عن التسعة الأشهر ، سواء عاش الجنين معها أم لم يعش . وفيما يتصل بالزيادة هى تشمل كل الفترات التى تزيد على التسعة الأشهر ، والتى اختلف العلماء بشأنها اختلافاً بيناً لأنها من أمور النساء . ولأن لكل حالة وضعها الخاص بها . « قال أبو عمر ، وهذه مسألة لا أصل لها إلا الاجتهاد والرد إلى ما عرف من أمر النساء ، وبالله التوفيق »(١) « وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك . ثم يكون مضغة مثل ذلك . ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع كلمات ، بكتب رزقه وعمره وعمله وشقى أو سعيد . وفى الحديث الآخر فيقول الملك أى رب أذكر أم أنثى ؟ أى رب أشقى أم سعيد ؟ فما الرزق فما الأجل ؟ فيقول الله ويكتب الملك »(٢) وتختم الآية الكريمة بالقول « وكل شىء عنده بمقدار » أى أن كل شىء يوجد ، هو موافق للزمن الذى أريد له أن يجىء فيه ، وللوظيفة التى أريد له أن يقوم بها . ويطلق المقدار على القدر وعلى ما يقدّر به الشىء(٣) ومعنى « كل شىء عنده بمقدار » أى بحد لا يتجاوزه ولا يقتصر عنه والمراد من العندية العلم . أى هو تعالى عالم بكمية كل شىء وكيفيته على الوجه المفصل المبين ، فامتنع وقوع اللبس فى تلك المعلومات(٤) ويقول ابن جرير(٥) : « وكل

---

(١) تفسير القرطبى ، ص ٣٥١٦ .
(٢) تفسير ابن كثير : ٢-٥٠٢ .
(٣) البحر المحيط : ٥-٣٦٩ .
(٤) البحر المحيط : ٥-٣٧٠ .
(٥) تفسير ابن جرير : ١٣-٧٣ .

شيء عنده بمقدار لا يجاوز شيء من قدره عن تقديره . ولا يقصر أمر أراده قدره عن تدبيره . كما لا يزداد حمل أنثى على ما قدر له من الحمل . ولا يقتصر عما حد له من القدر . والمقدار مفعال من القدر » . أما في صحيح البخاري فقد جاءت الإشارة إلى مفاتيح الغيب التي أشارت إليها الآية الأخيرة من سورة لقمان . روى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله . لا يعلم ما في غد إلا الله . ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله . ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله . ولا تدري نفس بأي أرض تموت . ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله »(١) .

ونتحول إلى الآية الكريمة التالية . قال تعالى : « عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » .

الغيب مصدر بمعنى الغائب . والشهادة مصدر بمعنى الشاهد(٢) . والكبير العظيم الشأن الذي كل شيء دونه(٣) والمتعال ، المستعلي على كل شيء بقدرته وقهره(٤) بياء ودونها(٥) « وهو المتفاعل من العلو ، مثل المتقارب من القرب ، والمتدانى من الدنو »(٦) .

لقد تبينا أن هذا القسم يدور حول علم الله تعالى المطلق . وكان المنعطف نحو هذا العلم ، ما نبهت إليه الآية الأخيرة في القسم السابق ، من كون كفار مكة لم يستفيدوا من العلم المشاهد ، وهو القرآن الكريم الذي يرتله عليهم الرسول العظيم ، إنما يطلبون مجموعة من الآيات الأخرى المادية ، التي إذا تحققت آمنوا كما يزعمون . والقرآن الكريم ينفي هذا الإيمان مستقبلا ،

---

(١) صحيح البخاري : ٦-٩٩ .

(٢) تفسير القرطبي ، ص ٣٥١٨ .

(٣) البحر المحيط : ٥-٣٧٠ ، والكشاف : ٢-١٦٠ .

(٤) تفسير القرطبي ، ص ٣٥١٨ . وانظر البحر المحيط : ٥-٣٧٠ .

(٥) تفسير الجلالين .

(٦) تفسير الطبري : ١٣-٧٥ .

لأن قدرة الآيات المادية بشأن أمة متفوقة فى مجال البيان أقل من قدرة معجزة الإسلام الكبرى الخالدة وهى القرآن الكريم فى مجال الإقناع . يضاف إلى هذا أن كل الأمم المكذبة السابقة ، أصرت على كفرها بعد أن تحققت طلباتها من المعجزات المادية ، فلن يختلف موقف كفار مكة عن موقف المكذبين السابقين .

وهكذا يتبين جهل كفار مكة بشأن كل من الشهادة ، أعنى القرآن الكريم فى المقام الأول . والغيب ، أعنى المعجزات المادية التى طلبوها فى المقام الأول كذلك . بينما أفهمت الآية الكريمة أن معجزة القرآن هى المناسبة لكفار مكة لأنها معجزة بيانية وهم فرسان البيان . فالله سبحانه وتعالى أعلم بنوع المعجزة النافعة لكل أمة من الأمم .

بعد هذا المنعطف الذى ظهر فيه بوضوح جهل كفار مكة ، المفرد والمركب ، تحول القسم التالى صراحة إلى تقرير علم الله تعالى المطلق ، فأشارت الآية الأولى إلى مظهر غيبي من مظاهر علم الله تعالى . وهو ما يتعلق بحمل كل أنثى وغيض الأرحام وازديادها ، قياسا على المظهر السابق لعلم الله تعالى ، والذى هو قريب إلى الغيب فى حق كفار مكة بخاصة ، والمتعلق بكون معجزة القرآن هى المناسبة لهم ولكنهم لا يعلمون .

ولما كانت هذه الآية الكريمة الأولى ، تتحدث عن مظهر غيبي لعلم الله تعالى ، فإن الآية التالية ، التى تسير على غرار آيات السورة الكريمة ، التى تتجلى فيها ظاهرة الصفات المتقابلة ، تقدم الغيب على الشهادة . قال تعالى : « عالم الغيب والشهادة » والمراد بالغيب ما غاب عن البشر وعن أبصاره فلم يروه . والمراد بالشهادة ما عاينوه بأبصارهم(١) . إن لفظة الغيب يرتبط بها الشهادة من قبيل التداعى بالتضاد ، هذا إلى أن علم الله تعالى يستوى بحقه الغيب والشهادة . وحينما تبدأ الإشارة بعالم الغيب ، فمن باب أولى أن يدخل ضمناً عالم الشهادة . نقول هذا بلغتنا نحن البشر العاجزين ، وإلا فالغيب

---

(١) أنظر تفسير الطبرى : ١٣-٧٥ .

والشهادة سواء فى حقه عز وجل الذى لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء . وقد نصت الآية الكريمة على عالم الشهادة ، لأنها تريد أن تقرر علم الله تعالى المطلق ، ولا يخرج علم من العلوم عن كونه فى دائرة الغيب أو فى دائرة الشهادة .

وعلى غرار الصفتين اللتين أشار إليهما صدر الآية الكريمة : « عالم الغيب والشهادة » أشار عجز الآية إلى صفتين من صفاته عز وجل « الكبير المتعال » .

ونود أن نختم حديثنا عن الآية الكريمة ، بتبيين الترابط المحكم بين شقيها « عالم الغيب والشهادة » ، « الكبير المتعال » لو أننا نحن البشر أردنا أن نبين علمنا بشيئين يتدرجان دقة وقيمة ، لأبتدأنا بالإشارة إلى أبسطهما ، وثنينا بالإشارة إلى أهمهما ، لأنا نحس فى هذا التدرج أنه يأخذ بأيدينا صعداً ، ويحقق حاجة أنفسنا لذلك ورغبتها فيه . لمـــاذا ؟ لأننا ننشد الكمال الذى نحس بعمق أننا دائماً بحاجة ماسة إليه .

فإذا تحولنا إلى الآية الكريمة ، تبينا ، من زاويتنا نحن البشر العاجزين عكس ذلك ، إذ يقدم السياق الأهم فى نظرنا على المهم « عالم الغيب والشهادة » إن الغيب والشهادة فى حق الله تعالى سواء ، وقد تقدمت الإشارة للغيب ، وكان لعطف المهم على الأهم فى نظرنا ، القدرة على رفع المهم إلى مستوى الأهم وإلى تنبيهنا نحن البشر العاجزين إلى أنهما فى حق الذات العلية سواء . وقد هيأنا رفع السياق للشهادة إلى مستوى الغيب ، أن نفهم مظهراً من مظاهر الكبرياء القرآنى ، الدال على الكمال المطلق للذات العلية ، كما هيأ الشق الثانى لأن ينص على صفتين من صفات الذات العلية ، يأخذان بسبب من الكمال الذى يدل عليه ترتيب الصفتين السابقتين ، فكان القول « الكبير المتعال » قال تعالى : « **عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال** » .

وهكذا يتبين الترابط المحكم العجيب بين آيات السورة الكريمة ، وجزئيات آياتها .

وإذا كان استواء الغيب والشهادة ، بصورته العمومية ، قد نصت عليه الآية الكريمة ، فإن الآية الكريمة التالية ، تنص عليه فى شىء من الخصوص ، وذلك بتقريرها علم الله تعالى المحيط ، لمظهرين من مظاهر الغيب ولمظهرين من مظاهر الشهادة ، سواء بسواء . قال تعالى : « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » .

سواء هنا بمعنى مستو ، وهو لا يثنى فى أشهر اللغات(١)وإسرار القول ما حدث به المرء نفسه . والجهر ما حدث به غيره(٢) والمستخفى بالليل هو المستتر بالليل فى ظلمته ، والسارب بالنهار هو الظاهر نهاراً . يقول ابن كثير(٣) : « وقوله : ومن هو مستخف بالليل ، أى مختف فى قعر بيته فى ظلام الليل ، وسارب بالنهار ، أى ظاهر ماش فى بياض النهار وضيائه ». « وهو اسم فاعل من سرب أى تصرف كيف شاء »(٤) يقال منه : سرب يسرب سروبا(٥) قال قيس بن الخطيم :

أنى سربت وكنت غير سروب وتقرب الأحلام غير قريب(٦)

ونحن حينما ننظر إلى الآية الكريمة من حيث إحاطة الله تعالى علماً بسر القول وجهره ، خفاء الإنسان ليلا وظهوره نهارا . نستطيع أن نفهم بشأن القول ما فهمه القرطبى مثلا حيث قال(٧) : « والمراد بذلك أن الله سبحانه يعلم ما أسره الإنسان من خير وشر ، كما يعلم ما جهر به من خير وشر » . وبشأن الفعل ، حسن الفعل وسيئه ، ليلا أو نهارا .

---

(١) البحر المحيط : ٥-٣٧٠ .
(٢) تفسير القرطبى ، ص ٣٥١٨ .
(٣) تفسير ابن كثير : ٣-٥٠٣ .
(٤) البحر المحيط : ٥-٣٥٨ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٣-٧٥ .
(٦) تفسير الطبرى : ١٣-٧٥ ، والبحر المحيط : ٥-٣٥٨ . والسرب بالفتح : الطريق والوجهة .
(٧) تفسير القرطبى : ص ٣٥١٨ .

إن فى الإمكان أن ننظر إلى الآية الكريمة من زاوية المعنيين بالحديث ، وهم كفار مكة المكذبون للقرآن الكريم وللرسول العظيم ، المنكرون للبعث ، وما عرف به هؤلاء ومن لف لفهم من الذين اتخذوا الحياة الدنيا غاية لهم ووكدا ، من نيات سيئة مبيتة ، وأقوال تميل فى مجموعها إلى الهجر فى حق الدين الذى رضى الله تعالى لعباده ، وأنزل من أجله كتابه العزيز على خاتم الأنبياء والمرسلين ، وما عرف به القوم من اتخاذهم الليل مطية لسوءاتهم ومخازيهم والنهار لبعض الجد وبعض المخازى .

وفى الإمكان أن ننظر إلى الآية الكريمة ، فى ضوء التهديد الذى يمكن أن يستشف منها ، من زاوية النفس الإنسانية بعامة ، حينما تكون بعيدة عن اطمئنان اليقين ، ومجالا لشد النفس الأمارة بالسوء ، وجذبها ، فإن هذه النفس بشأن القول أقرب إلى الهجر الذى قد يكون حبيسها ، فهو من باب الوسوسة ، وقد تفضح به لمن تخلص به نجيا . وقد تعلنه على رءوس الأشهاد حينما تبلغ بها الجراءة كل مبلغ . وإن هذه النفس ، بشأن الفعل أقرب إلى أن ترتكب الآثام مستترة عن أعين الناس ، بظلمة الليل . وأن تعلن عكس ذلك حينما تضطرب فى الطرقات بوضح النهار . أما إذا بلغت بها الجراءة كل مبلغ ، فإنها تخلع برقع الحياء ، على رءوس الأشهاد .

وفى ضوء ذلك ، من الجائز أن يفهم أن الحديث فى الآية الكريمة موجه فى المقام الأول لكفار مكة ، ولأصحاب النفس الأمارة بالسوء ، الذين يرتكبون الآثام قولا وفعلا ، ويستترون من الناس . بشأن القول يبقونه دفينا فى أنفسهم ، أو يفصحون به لخاصتهم . وبشأن الفعل باتخاذ الليل ستارا ، فهل يظن هؤلاء أن ما أرادوا له أن يكون سراً هو كذلك فى حق الله تعالى ، إن عليهم جميعاً أن يفهموا أن الغيب والشهادة سواء فى حقه عز وجل ، وأن سر القول وجهره ، الاستخفاء ليلا والسروب نهارا ، سواء فى حقه عز وجل ، الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء . على الكافرين أن يتحولوا إلى الصراط المستقيم ، وإلى اليقين بأنه عز وجل لا تخفى عليه منهم خافية . وعلى أصحاب النفس الأمارة بالسوء أن يتحولوا إلى الصراط المستقيم ،

وأن يكون باطنهم كظاهرهم ، لأن الكل مثاب أو معاقب عن كل ما صدر منه ، من خير أو شر . قالت عائشة رضى الله عنها : سبحان الذى وسع سمعه الأصوات . والله لقد جاءت المجادلة تشتكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا فى جنب البيت . وإنه ليخفى على بعض كلامها ، فأنزل الله : **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير**(١) .

ونحن فى غنى عن القول . إن الجو العام للمعانى التى تتحدث عن علم الله تعالى ، المطلق ، هو الذى جعل الآية الكريمة ، على غرار ما سبقها ، تقدم الحديث عن سر القول على جهره وعن خفاء الليل على ظهور النهار .

ونحن فى غنى عن التنبيه إلى الصفات المتقابلة التى تطبع الآية الكريمة ، شأن الكثير غيرها من الآيات . فنحن بصدد سر القول وجهره ، الخفاء والظهور ، الليل والنهار .

ونحن فى غنى عن القول : إن السياق يستغنى بطبعه عن اسم الموصول للمرة الرابعة . واسم الضمير هو للمرة الثانية فى القول « وسارب بالنهار » قال تعالى : « **سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار** » فإذا كشفنا بعد ذلك عن سر صوتى عجيب وراء هذا الحذف الذى يتطلبه المعنى ، أدركنا لماذا انقسمت الآية الكريمة على غرار سابقتها إلى قسمين . أما هذا السر الصوتى العجيب فهو أن كلا من قسمى الآية الكريمة فى هذه الصورة ، يتكون من ثمان وعشرين حركة وسكونا ، بالتمام والكمال . وفى ذلك من الجمال الصوتى ما فيه . فسبحان الله تعالى الكبير المتعال ، الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء هذا هو الضبط بطريقة الخليل .

سواء منكم من أسر القول ومن جهر به

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢-٥٠٣ .

ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار

وهذا هو الضبط بطريقة المستشرقين .

ثمانية عشر مقطعاً

سبعة عشر مقطعا

ويلاحظ بشأن طريقة المستشرقين أن القسم الأول يتكون من ثمانية عشر مقطعاً ، والقسم الثانى يتكون من سبعة عشر مقطعاً . فلماذا حدث هذا النقص ؟ لأن فى القسم الثانى مقطعاً طويلا يتكون من ثلاثة أحرف ، متحرك فساكنين ، فالمقطع الطويل فى الحقيقة مقطعان وليس مقطعاً واحداً ، لأن المقطع القصير عبارة عن حركة واحدة ، والمقطع المتوسط عبارة عن حركة فسكون .

ولو أننا فى أثناء التلاوة وقفنا عند نهاية القسم الأول وعند نهاية الآية الكريمة ، فقلنا :

« سواء منكم من أسر القول ومن جهر به . ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » لكنا بصدد سبعة عشر مقطعاً صوتياً بالتمام والكمال . ونود أن ننبه إلى توازن صوتى داخلى آخر ، هو أن فى كلا القسمين سبعة مقاطع قصيرة وفق الطريقة الثانية للتلاوة ، وأن فى القسم الأول عشرة مقاطع متوسطة أما فى القسم الثانى فتسعة متوسطة وواحد طويل .

ولا ننسى بعد هذا كله أننا بصدد كلام هو أقرب إلى النثر منه إلى أى شىء آخر . ولا ينتظر فى النثر شىء كهذا ولا قريب منه . ولكننا بصدد كلام الله تعالى المعجز معنى ومبنى .

ونتحول الآن إلى هذه الآية الكريمة . قال تعالى : « له معقبات من

بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » .

فيما يتصل بضمير الغائب المفرد المتصل من قوله « له معقبات » ثمة ، رأيان بشأن العائد إليه هذا الضمير . الرأى الأول ، وقد ارتآه كثير من المفسرين ، يذهب إلى أن الضمير يعود إلى جنس الإنسان الذى أشارت إليه الآية السابقة « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » ومن الذين قالوا بهذا الرأى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما . فقد جاء فى البحر المحيط (١) مثلا القول : « وقال ابن عباس : هو عائد على من فى قوله : ومن هو مستخف . وكذلك باقى الضمائر فى الآية » . والرأى الثانى يذهب إلى أن الضمير يعود إلى الذات العلية . يقول القرطبى (٢) مثلا : « له معقبات ، أى لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار . فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار » .

وإن كلا الرأيين وجيه . لأنه محتمل وغير ممتنع . ولكن بما أن الآية الرابعة عشرة : « **له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى المـاء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال** » ، تبدأ — كما هو واضح — بالجار والمجرور ذاته « له » ويعود الضمير هنا بإجماع العلماء على الذات العلية . لذا يترجح الرأى القائل إن الضمير فى الآية السابقة يعود إلى الذات العلية كذلك كما ارتأى القرطبى . والله تعالى أعلم .

فما معنى المعقبات ؟ معناها جماعات من الملائكة ، تعتقب فى حفظه وكلاءته . والأصل معتقبات ، فأدغمت التاء فى القاف ، كقوله : وجاء المعذرون ، بمعنى المعتذرون(٣) « والملائكة جمع ملك ، مذكر غير

---

(١) ٥-٣٧١ .
(٢) تفسير القرطبى : ص ٣٥٢٠ .
(٣) الكشاف : ٢-١٦٠ .

مؤنث . وواحد الملائكة معقب ، وجماعتها معقبة ، ثم جمع جمعه . أغنى جمع معقب بعدها جمع معقبة »(١) ومعقب وزنه مفعل من عقب الرجل إذا جاء على عقب الآخر ، لأن بعضهم يعقب بعضا . أو لأنهم يعقبون ما يتكلمون به فيكتبونه(٢) ويرجح أن المعقبات بمعنى ملائكة الليل والنهار يخلف بعضها بعضا . بدليل أن هذا اللفظ ذاته يطلق فى حق الإبل اللواتى يقمن عند أعجاز الإبل المعتركات على الحوض . فإذا انصرفت ناقة دخلت مكانها أخرى(٣) وبشأن اللفظة فى الآية الكريمة : « قال أبو الهيثم : سمين معقبات لأنهن عادت مرة بعد مرة ، فعل من عمل عملا ثم عاد إليه فقد عقب »(٤) .

فالمراد أن للعبد ملائكة يتعاقبون عليه . حرس بالليل وملائكة بالنهار . وقد ذهب العلماء إلى أن الإنسان بين أربعة أملاك بالنهار ، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات . وصاحب الشمال يكتب السيئات . وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه . واحد من ورائه وآخر من قدامه . جاء فى الصحيح . يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم . كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون(٥) .

وإذا كان المعقبات بمعنى الملائكة اللاتى يكون من نصيب الشخص الواحد أربعة منها ، اثنان عن اليمين وعن الشمال كما قال تعالى فى سورة ق(٦) : «إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد» واثنان من بين يديه ومن

---

(١) تفسير الطبرى : ١٣-٧٦ وفى الأصل « بعد ما جمع » .
(٢) البحر المحيط : ٥-٣٧١ .
(٣) القاموس « عقب » .
(٤) تفسير القرطبى : ص ٣٥٢٠ .
(٥) تفسير ابن كثير : ٢-٥٠٣ .
(٦) آية : ١٧ .

خلفه . فمعنى هذا أن الآية الكريمة فى اختيارها لقدام الإنسان ووراثه ، قد عينت الزاوية التى ستنظر من خلالها وهيأت لعملية الحفظ التى نصت عليها الجملة التالية مباشرة « يحفظونه من أمر الله » وكأن القدام والوراء قوة لرأى الجمهور الذى يذهب إلى أن المعقبات بمعنى الملائكة التى يعقب بعضها بعضاً والتى أشار إليها الحديث الذى رواه الأئمة : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار(١) وليس الملائكة التى تعقب ما يتكلم به الإنسان ويفعله فتكتبه ، وهو الرأى الآخر الذى أشار إليه أبو حيان(٢) .

ولا ينبغى أن يفهم أن الملكين اللذين عن يمين الإنسان وشماله لا تشملهما أو لا تعنيهما ضمنا الآية الكريمة . وكيف يكون الأمر كذلك وهما اللذان يقومان بعملية التدوين التى يكون وفقها الانتقام أو الإنعام . إنما المراد أن الزاوية التى راعتها الآية الكريمة هى زاوية حفظ الله تعالى للإنسان ، حتى إذا جاء قدر الله تعالى خلا الملكان بين الإنسان وبين قدر الله تعالى . وبهذا تتحقق الفكرتان أو الصفتان المتقابلتان ، الحفظ بإرادة الله تعالى ، والتخلى بإرادة الله تعالى . وها نحن أولاء نصادف سريعاً فى هذه الآية الكريمة أيضاً ، صفة التقابل فى الصفات التى تصبغ السورة الكريمة بصبغتها .

وقال العلماء رضوان الله عليهم : إن الله سبحانه جعل أوامره على وجهين ، أحدهما قضى حلوله ووقوعه بصاحبه ، فذلك لا يدفعه أحد ولا يغيره . والآخر قضى مجيئه ولم يقض حلوله ووقوعه ، بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء ، والصدقة والحفظ(٣) .

فما معنى حرف الجر « من » فى قوله تعالى : « يحفظونه من أمر الله » إن أول ما نود الإشارة إليه ، هو أن حرف الجر هذا يجىء فى هذا الشق ثلاث مرات . قال تعالى : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » فمعنى هذا ، أننا بصدد تجانس صوتى مصدره

---

(١) أنظر هنا تفسير القرطبى : ص ٣٥٢٢ .
(٢) البحر المحيط : ٥-٣٧١ .
(٣) تفسير القرطبى : ص ٣٥١٣ .

التكرار . وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن هذا الحرف فى قوله « من أمر الله » بمعنى الباء التى تفيد السببية ، أى يحفظونه بأمر الله . ومعروف أن حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض(١) جاء فى البحر المحيط(٢) القول : « والظاهر أن قوله تعالى : « من أمر الله » متعلق بقوله « يحفظونه » قيل « من » للسبب ، كقولك : كسوته من عرى ، ويكون معناها ومعنى الباء سواء . كأنه قيل : يحفظونه بأمر الله وبإذنه . فحفظهم إياه متسبب عن أمر الله لهم بذلك . . . وقراءة على وابن عباس وعكرمة وزيد بن على وجعفر بن محمد ، يحفظونه بأمر الله ، تؤيد تأويل السببية فى من » . والظاهر أن قوله تعالى : « من أمر الله » متعلق بقوله « يحفظونه »(٣) وكأنى بأبى حيان يرد على الزمخشرى الذى ذهب فى الكشاف(٤) إلى القول : « وليس من أمر الله بصلة للحفظ . كأنه قيل : له معقبات من أمر الله أو يحفظونه من أجل أمر الله . أى من أجل أن الله أمرهم بحفظه » .

قال مجاهد : ما من عبد إلا له ملك موكل يحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام . فما منها شىء يأتيه يريده إلا قال له الملك : وراءك . إلا شىء أذن الله فيه فيصيبه(٥) وعن ابن عباس : « يحفظونه من أمر الله قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء قدره خلوا عنه ».(٦)

ونتحول إلى القسم الثانى فى الآية الكريمة . قال تعالى: « **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » .

سبق أن تبينا أن القسم الأول فى الآية الكريمة : « **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** » يشير إلى حفظ الملائكة للإنسان

---

(١) انظر تفسير القرطبى ، ص ٣٥٢١ ، والطبرى : ١٣-٧٩ .
(٢) ٥-٣٧٢ .
(٣) البحر المحيط : ٥-٣٧٢ .
(٤) ٢-١٦١ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٣-٧٨ ، وابن كثير : ٢-٥٠٣ .
(٦) تفسير الطبرى : ١٣-٧٧ .

بإرادة الله تعالى ، وذلك امتداد لنعم الله تعالى الظاهرة والباطنة التى لا تحصى على الإنسان . فما واجب الإنسان تجاه هذه النعم فى حقه ؟ أن يقوم بما يجب عليه من شكر لله تعالى ، بفعل الأوامر واجتناب النواهى . وفى مقدمة ذلك أن يعبد الله تعالى وحده لا شريك له . وقد أشارت سورة الرعد ، إلى مجموعة من التكاليف التى يطلب من أولى الألباب أن يعوها جيداً ويتمسكوا بموجبها . قال تعالى : « **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، إنما يتذكر أولو الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** » . وما عقاب الذين يتعدون حدود الله تعالى ؟ هذا هو الجواب فى الآية التالية مباشرة « **والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار** » .

وإن كلا من الثواب والعقاب يمكن أن يكون فى الدنيا قبل الآخرة . أما الثواب فى الدنيا فقد أشار إليه مثلا قوله تعالى فى سورة النحل :— « **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**(١) » . وأما العقاب فقد أشار إليه القسم الذى نحن بصدده من آية سورة الرعد . وكذلك القسم الأخير . قال تعالى « **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال** » .

وفى سبيل تعيين المعنى الذى يعنيه القسم الثانى نحن بحاجة إلى أن نتحول

---

(١) آية : ٩٧ .

إلى آية مماثلة فى سورة الأنفال ، لها القدرة على تحديد الاتجاه وتعيين المعنى المطلوب . وهذه هى الآية الكريمة « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم(١) » . وهذه هى الآيات الثلاث السابقة التى تسعف على تحديد اتجاه المعنى الذى صرحت به الآية الرابعة . قال تعالى : « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم . إن الله قوى شديد العقاب » . ثم تجىء الآية الكريمة التى تشير إلى تغيير الله تعالى على الظالمين النعمة والعافية فى الدنيا ، إلى نقمة وبلاء « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم » . وواضح أن آية سورة الرعد لم تصرح بذكر النعمة . « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ولكن السياق يوحى بذلك ، كما أن آية سورة الأنفال تذكر ذلك بصريح العبارة .

وهكذا يتبين أن هذا الجزء من الآية « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » يجرى مجرى التهديد والوعيد . وكأن هذا الجزء يتعلق به عمل الملكين الكاتبين فى المقام الأول . وكأن عمل الملك الذى يكتب السيئات عن شمال الإنسان ، أكثر من عمل الملك الذى يكتب الحسنات ، الكاتب على اليمين . وكأن انتقام الله تعالى من المنحرفين عن سواء الصراط ، يوشك أن يحل بهم ، ويوشك أن يتخلى الملكان الحافظان ، بإرادة الله تعالى ، عن الإنسان الكفور . وإلى هذه المرحلة أشار الجزء الثالث فى الآية الكريمة .

إن هذا الجزء الثانى من الآية الكريمة ، يريد أن يقول لكل إنسان إنك ما دمت مطبقاً لتعاليم القرآن الكريم ، وتعاليم الرسول الكريم ، فإنك مطيع لله تعالى ، محافظ على نعم الله تعالى عليك ، ولن يغير الله تعالى عليك

---

(١) آية : ٥٣ .

نعمته إلى نقمة ، ولا عافيته إلى ابتلاء . وإن هذا المعنى ذاته هو الذى وجه إلى أهل الكتاب قبلنا نحن المسلمين . فقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى فى سورة المائدة(١): «**ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم . منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون**» . أما الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ، فقد بدل الله تعالى عليهم فى الدنيا النعمة نقمة والصحة مرضاً والعافية بلاء . ويوم القيامة يصلون جهنم وبئس القرار .

وهكذا يتبين أن المعنى الأولى لهذه الجزئية « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » هو تهديد المنحرفين عن سواء السبيل بارتكاب الآثام ، بأنهم إن لم يتوبوا إلى الله تعالى ويستغفروه فيوشك أن تحل بهم نقمة المنتقم الجبار ، وستزول النعمة التى هم فيها . ومن ذا الذى يستطيع أن يعيد شيئاً أراد الله تعالى له أن يتحول ويذهب ؟ لا أحد . كما أنه يفهم من هذه الجزئية ضمنا أن المؤمنين المتقين ، لن يسلبهم الله تعالى نعمه . هذه هى سنة الله تعالى التى لا تتغير ولا تتبدل .

ولو أننا من هذا المنطلق نظرنا إلى العالم الإسلامى ، وقارنا بين حاله فى فجره وحاله فى هذا العصر وفى العصور السابقة عليه ، لتبينا الفرق البعيد ، بعد ما بين السماء والأرض . لقد كانت للمسلمين فى العصور الأولى الكلمة الأولى فى الدنيا . أما اليوم ، فينطبق فى حقهم قول القائل : (جرير)

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود

ولا شك أن المسلمين انطبق عليهم قوله تعالى فى سورة الأنفال : « **ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**

---

(١) آية : ٦٥ ، ٦٦ .

وأن الله سميع عليم » وقوله تعالى فى سورة الرعد « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »(١) .

إن النعمة إنما كانت من نصيب المسلمين ، حينما كانوا مسلمين لله رب العالمين فعلا ، مطيعين لله تعالى ولرسوله ، آخذين ما آتاهم الرسول الكريم ، منتهين عما نهاهم عنه . حينما كانوا إخوة متحابين كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائره بالسهر والحمى . وماذا نحن قائلون عن تلك النعمة التى امتن الله تعالى بها على المسلمين ؟ إن الجوانب أكثر من أن يأتى عليها الحصر . ويحضرنا جانبان مهمان ، العلم والعمل . أما العلم فيكفى أن يقال إن غير المسلمين كانوا يفدون إلى ديار الإسلام للعب من مناهل العلم ، لأن العالم الإسلامى آنذاك هو الممثل الوحيد للحضارة ولقمة الحضارة التى عرفتها الإنسانية حتى ذلك الوقت . وأما العمل ، فكفى أن يقال : إن البحار الثلاثة ، الأحمر والأبيض والأسود ، كانت عبارة عن بحيرات إسلامية . ولو أصغينا إلى ما قال ابن خلدون فى مقدمته فى الفصل الخاص بقيادة الأساطيل(٢)عن الأسطول الإسلامى البحرى ، لراعنا قوله بشأن قوة المسلمين البحرية فى البحر الأبيض(٣) « وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشىء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح ، سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل » ويضيف قائلا : « والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة . والعساكر الإسلامية تجيزه . . . وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالى الشرقى منه ، من سواحل الإفرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها

---

(١) آية : ٥٣ .

(٢) ص ١٨٩ فما بعدها .

(٣) ص ١٩٠ .

وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا واختلفت فى طرقه سلماً وحرباً فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح . . . » وربما كان رائعاً أن يعزف عن مدى قدرة المسلمين على الحركة والإبداع فى كل مجال ، بما فى ذلك المجال العسكرى ، بتسجيل هذه الظاهرة الحضارية الحربية التى تتمثل فى كون المسلمين أيام عزهم كان لديهم وسيلة يستطيعون عن طريقها أن يعرفوا فى نهار واحد أو ليلة واحدة ، طوال الساحل الإفريقى من البحر الأبيض ، عن وجود خطر يهدد جانباً من سواحل الإسلام ، كى يعمل المجاهدون من أجل تأديب أعداء الإسلام الذين حاولوا أن ينالوه بأذى من جانب البحر ، أما هذه الظاهرة الحضارية فتتمثل فى كون المسلمين قد أقاموا بروجاً بطول الساحل الإفريقى ، يبين من الواحد منها ما عن يمينه وشماله من بروج . فإذا تعرض جانب من الساحل الإسلامى لخطر ، أو قدت النيران ليلا فى الأبراج المقابلة ، فقام المجاورون بدورهم بالعمل نفسه . . . وهكذا . وفى وقت قصير تكون البروج كلها موقدة بالنيران مؤذنة بالخطر وبالنفير العام للذود عن بيضة الإسلام . وبما أن النيران لا تبين نهاراً فقد حل بالنهار الدخان محل النار ليلا . لقد كان المسلمون وقتها يحكمون الأمواج حكمهم للوهاد والنجاد .

فما الذى بدل هذه النعمة نقمة والعزة ذلة والوحدة فرقة والعلم جهلا والقوة ضعفا ؟ إن الذى بدل ذلك هم المسلمون أنفسهم بابتعادهم عن نبعى عزهم الخالدين . القرآن الكريم وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك »(١) . إن لله تعالى سنناً ونواميس لا تتغير ولا تتبدل . وحينما عمل المسلمون وفق القرآن الكريم وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، اللذين يأمران بالعلم النافع(٢) والعمل الصالح ، كانوا موافقين لسنن الرقى والحضارة ، فصدقهم الله

---

(١) النساء : ٧٩ .

(٢) العلم ومشتقاته ، وردت فى القرآن الكريم حوالى ثمانمائة وثمانين مرة .

تعالى وعده فى مثل قوله تعالى فى سورة النور (١): قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وإن تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين . وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا . يعبدونني لا يشركون بى شيئا . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

أما حينما ابتعد المسلمون عن نبعهم الخالدين ، فقد كان تأخرهم وتدحرجهم عن القمة بقدر ابتعادهم . ألم ينبه المصطفى صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى طريق العز إن تمسكوا بالقرآن الكريم والسنة المطهرة . وطريق الذل إن هم ابتعدوا عنهما فى قوله فى خطبته بحجة الوداع (٢): « وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، أمراً بينا ، كتاب الله وسنة نبيه » .

وهكذا يتبين أن المسلمين حينما غيروا ما بأنفسهم ، فلم يشكروا الله تعالى على نعمه وآلائه بامتثال أوامره وأوامر حبيبه صلى الله عليه وسلم ، غير الله تعالى عليهم ، فتحولت نعمته نقمة وعافيته بلاء . قال تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وما دام السبب فى تحول النعمة نقمة والعافية بلاء معروفاً ، فمعنى هذا أن السبب فى تحول النقمة إلى نعمة مرة أخرى والبلاء إلى عافية معروف بداهة أيضا . إن السبب يكمن فى عودة المسلمين إلى كتاب ربهم وإلى سنة نبيهم . فإذا عمل المسلمون وفق القرآن الكريم والسنة المطهرة ، فمعنى هذا أن لديهم الرغبة المشفوعة بالعمل فى تغيير واقعهم السيء إلى واقع حسن بعون الله تعالى وتوفيقه ، وستكون العناية الإلهية معهم . وإن فى الآيتين الكريمتين من سورة النور لتوضيحاً لهذا الطريق الذى ينبغى أن يسير فيه

---

(١) آية : ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) السيرة النبوية : ٢-٦٠٤ .

المسلمون إن أرادوا لشمس مجدهم أن تشرق من جديد . قال تعالى فى سورة النور(١) : « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم . وإن تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين . وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

فمما سبق يتبين أن هذه الجزئية الكريمة « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » تدل فى الأساس على سنة الله تعالى فى كونه عز وجل لا يسلب عبداً من عباده النعمة إلا إذا بدل هذه النعمة كفرا . ويؤيد هذه النظرة السياق الذى يتجه فى الآية الكريمة من النعمة إلى النقمة ، ومما يساعد على ذلك آية سورة الأنفال المشابهة التى يصرح فيها بذكر النعمة. قال تعالى(٢) : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم » كما يتبين أن هذه الجزئية تفيد ، بدلالة الالتزام هذه المرة ، الجانب الآخر المكمل لسنة الله تعالى فى كون العائدين إلى الإيمان والعمل الصالح سيعيد تعالى إليهم عزهم ومجدهم . بأن تعود النقمة نعمة والبلاء عافية . إن الآية الخامسة والخمسين من سورة النور أظهرت هذا الجانب من السنة فى مظهر الوعد من الله تعالى : « ومن أصدق من الله قيلا »(٣) ولا يخفى أن آية سورة النور تشير فى عجزها « ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » إلى المعنى الأولى لجزئية آية الرعد : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

ونتهى بشأن جزئية آية الرعد إلى ما يلى :

١ — إن هذه الجزئية تدل أساساً على سنة الله تعالى فى كونه لا يسلب من عبده النعمة إلا بعد أن يكفر العبد بهذه النعمة .

---

(١) آية : ٥٤ ، ٥٥ .
(٢) آية : ٥٣ .
(٣) النساء : ١٢٢ .

٢ ــ إن هذه الجزئية تفيد بدلالة الالتزام ، الجانب الآخر المكمل لهذه السنة ، وهو أن من أراد أن تعود إليه النعمة والعافية ، فإن ذلك يكون بفعل الأوامر واجتناب النواهي .

ونحن إذا نظرنا إلى آراء المفسرين قدماً وحديثاً لهذه الجزئية الكريمة : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » فإنا نتبين أن قدامى المفسرين يميلون إلى تفسيرها بما يتمشى مع اتجاه المعنى فى أقسام الآية الكريمة الثلاثة ، حيث التحول من النعمة والعافية والعلو ، إلى النقمة والبلاء والنزول . جاء فى البحر المحيط(١) مثلا القول : « وفى الحديث ، إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه ، يوشك أن يعمهم الله بعقاب . . . . وما موصولة ، صلتها بقوم . وكذا ما بأنفسهم . وفى ما إبهام لا يتغير المراد منها إلا بسياق الكلام واعتقاد محذوف يتبين به المعنى ، والتقدير : لا يغير ما بقوم من نعمة وخير إلى ضد ذلك حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعته إلى توالى معصيته » . وجاء فى تفسير القرطبى(٢) : « فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب ، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير . كما قال صلى الله عليه وسلم وقد سئل أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال نعم . إذا كثر الخبث » وجاء فى الجلالين : « لا يسلبهم نعمة حتى يغيروا ما بأنفسهم من الحالة الجميلة بالمعصية » وجاء فى تفسير الطبرى(٣) : « إن الله لا يغير ما بقوم من عافية ، ونعمة ، فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك ، بظلم بعضهم بعضاً واعتداء بعضهم على بعض ، فتحل بهم حينئذ عقوبته وتغييره » .

وواضح أن قدامى المفسرين يميلون إلى تفسير الجزئية الكريمة بما يتمشى مع آية سورة الأنفال التى تتفق فى صياغتها كثيراً مع جزئية آية سورة الرعد . هذا بالإضافة إلى أن آية سورة الأنفال جاء فيها النص الصريح

---

(١) ٥-٣٧٣ .
(٢) ص ٢٣ ، ٣٥ .
(٣) ١٣-٨١ .

على النعمة ، بينما هى مضمرة أو مفهومه ضمناً فى جزئية آية الرعد . وسبق أن قلنا إن هذا التفسير فى رأينا هو التفسير الأولى للجزئية الكريمة .

فإذا تحولنا إلى متأخرى المفسرين تبين أنهم يذهبون فى مجموعهم إلى المعنى الآخر الذي قلنا إن الجزئية الكريمة تفيده بدلالة الالتزام . ويفهمون أن هذه الجزئية تعنى أن على المسلمين ، إن أرادوا أن يبدل الله تعالى حالهم السيء إلى حال أحسن ، فينبغى أن تكون المبادرة منهم عن طريق العودة الصادقة للإيمان والعمل الصالح وفق تعاليم القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف . ويلوح أن الذى حدا بجل المفسرين إلى هذا المعنى هو الواقع الأليم للمسلمين ، ورغبتهم الصادقة فى أن يعود إلى المسلمين مجدهم عن طريق رفع الروح المعنوية لديهم . كى يطرحوا الكسل جانبا ، ويعملوا بل يضاعفوا العمل علهم يستطيعون أن يملأوا الفراغ الذى بينهم وبين من تقدمهم فى مجال الرقى المادى ويلحقوا به ويسبقوه . ونحن نبارك هذه النية الحسنة ونكتفى بالقول تجاه هذا الرأى : إنه رأى تفيده الجزئية الكريمة ولا شك ، ولكن بدلالة الالتزام أما المعنى الأولى للجزئية الكريمة فى ضوء صياغة الآية وفى ضوء آية سورة الأنفال ، فهو المعنى الذى سبق أن أوضحنا والذى ذهب إليه المفسرون القدامى فى مجموعهم والله تعالى أعلم .

ونضيف إلى ما سبق بأنا نستطيع أن نلهب حماس المسلمين كى يضاعفوا من مجهوداتهم ليعود إليهم مجدهم الغابر ، بتلاوة مثل قوله تعالى فى سورة التوبة(١): « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » . وقوله تعالى فى سورة النور(٢) « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونى لا يشركون بى شيئاً . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » . وقوله تعالى فى سورة

---

(١) آية : ١٠٥ .
(٢) آية : ٥٥ .

النحل(١) : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

وإذا كان القسم الأول فى الآية الكريمة : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » يتحدث عن حفظ الله تعالى لعباده ، بواسطة ملائكته الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فإن القسم الثانى « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » يعتبر بمثابة التهديد بالتخلى عن مهمة الحفظ وما فى حكمها من نعمة ورخاء وأمن وعافية وما إلى ذلك ، كى يتحول كل ذلك إلى عكسه . حتى إذا تحولنا إلى القسم الثالث والأخير فى الآية الكريمة « وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » تبين أنه يتعلق بوضع هذا التهديد موضع التنفيذ . فبعد أن كانت عناية الله تعالى هى التى تحفظهم ، إذا هذه العناية ، بسبب إصرار القوم على المعاصى ، تتخلى عنهم ، ويتحول حالهم الحسن ، والنعمة التى لم يرعوها ، إلى حال سيىء ونقمة عبر عنهما بالسوء فى قوله تعالى : « وإذا أراد الله بقوم سوءا » .

وهكذا يتبين أن نعمة الحفظ التى أشار إليها القسم الأول قد أردفت فى القسم الثانى بنعمة أخرى هى نعمة التنبيه على الطريقين ، طريق الشر كى يجتنبه الإنسان ، وطريق الخير كى يتبعه . حتى إذا أصر قوم على السير فى الطريق الخاطىء انتقم الله تعالى منهم شر انتقام ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ومزقهم شر ممزق . وإن السوء الذى أراد الله تعالى أن يوقعه بالظالمين لا مرد له ولا دافع ولا صارف . وإذا حل بالقوم فلا يستطيع أن يصرفه من دون الله تعالى صارف . فلا يستطيع أن يكشف الضر أو يحوله عن القوم إلا الله سبحانه وتعالى . وإلى ذلك أشار القسم الثالث « وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » ويمكن أن يفهم حرف الجر « من » فى قوله « من وال » بأنه يفيد التبعيض ، وإن نفى البعض أبلغ من نفى الكل

---

(١) آية : ٩٧ .

. والوال بمعنى الناصر . ووال وولى ، كقادر وقدير(١) ولا يخفى أن لفظة « وال » هى التى تتمشى مع رءوس الآى . والمعنى : ليس للقوم من وال يلى أمرهم ويحرص على مصالحهم ورعاية حقوقهم « وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يقول : السوء الهلكة . ويقول : كل جذام وبرص وعمى وبلاء عظيم فهو سوء ، مضموم الأول . وإذا فتح أوله فهو مصدر سؤت . ومنه قولهم : رجل سوء »(٢) .

مما سبق يتبين الترابط المحكم العجيب بين أقسام الآية الكريمة الثلاثة . ونستطيع أن نقول إنها تسير وفق الطابع الغالب على آيات السورة الكريمة من كونها تتحدث عن الشىء وعما يقابله ، أو إنها تشتمل على صفتين متقابلتين . أما الصفة الأولى فهى الحفظ . وأما الصفة الأخرى فهى المقابلة للحفظ ، أى إلحاق السوء بمستحقيه ، وإنزال الهلاك بهم . والله سبحانه وتعالى أعلم .

لقد بعث الله تعالى خاتم الأنبياء والمرسلين لإخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ، ومن حيرة الضلال إلى راحة الأهتداء ، ومن نار الشك إلى برد اليقين . وأنزل عليه آخر كتبه كى ينذر الناس ويبشر الذين الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون إن هذا لساحر مبين . إنهم يكذبون الرسول الكريم ، وينكرون القرآن الحكيم ، ويشركون مع الله تعالى سواه ، ولا يرجون لقاء الله تعالى ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها « وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر »(٣). ومع أن فى السماوات والأرض الكثير من الآيات الدالة على وحدانيته تعالى وقدرته على إعادة الحياة إلى الخلائق يوم القيامة ، فإن هؤلاء الكافرين أصروا على تكذيبهم وإنكارهم ، بل أخذوا يستهزئون بأن يطلبوا من الرسول الكريم أن يتعجل إنزال العذاب بهم عن طريق طلب مجموعة من الخوارق

---

(١) انظر تفسير القرطبى : ص ٣٥٢٤ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٣ - ٨١ .

(٣) الجاثية : ٢٤ .

المادية يعلمون يقينا أنها لو تحققت لما آمنوا . بل بلغ بهم الحمق الدرجة التي يطلبون معها منه عز وجل أن يمطر عليهم حجارة من السماء ، فهم من ناحية يستعجلونه صلى الله عليه وسلم بالسيئة قبل الحسنة . وهم من ناحية أخرى يستعجلونه عز وجل بالعذاب قبل المغفرة . ولما كان هؤلاء القوم ، ينتظرون أن تأتيهم الآيات من السماء إن كان ثمة آيات مادية ستنزل فإن القرآن الكريم يلفت انتباه هؤلاء الكافرين إلى بعض الآيات المتعلقة بهذه السماء تلك الآيات التي تدل كل منصف في النظر والتدبر على الواحد الأحد القادر على كل شيء والذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . جاء في سورة يونس، قوله تعالى: **«إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون »**(١) . والآيتان الكريمتان التاليتان من سورة الرعد تلفتان انتباه هؤلاء الكفار لبعض آيات الله تعالى في السماء ، التي لو تدبرها الكافرون إثر تنبيه القرآن الكريم لهم إلى ذلك ، لكان في التدبر الخير الكثير لهم وللمؤمنين . ولكن القوم أقرب إلى اللهو واللعب ، الهزء والسخرية ، منهم إلى الجد والإخلاص . قال تعالى : **« هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشيء السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته . ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال »**

إن هاتين الآيتين الكريمتين تتحدثان عن بعض آيات الله تعالى في السماء ، يراها كل ذي عينين ، ويحس بها كل إنسان . وإن كل منصف في النظر عادل في التأمل ، ينبغي أن يفهم منها ما تدل عليه من قدرة مطلقة للفعال لما يريد . وهاتان الآيتان الكريمتان تتعلقان بالمطر وبملابساته ، من سحاب ورعد وبرق وصواعق . وإن للجو النفسي ولاتجاه آيات السورة الكريمة في التعبير ، دوراً في صياغتها على هذا النحو . إن كفار مكة يريدون أن تنزل عليهم آيات مادية من السماء ، فهم مهيئون نفسياً لأن يروا آيات

---

(١) آية : ٦ .

واضحات . ولو أننا نظرنا إلى العناصر المرتبطة بالمطر ، من سحاب ورعد وبرق وصواعق ، وبحثنا عن أكثر هذه العناصر قدرة على شد الانتباه إليها لمراعاتها ناحيتين . الناحية الأولى هى كون هذا العنصر أو ذاك ليس كثير الورود لأن القوم الذين يعنيهم السياق قد بلغ بهم تبلد الإحساس شأوا بعيداً . والناحية الثانية هى كونه ليس نادر الورود ، إنما هو العنصر الذى يتوسط هذين الطرفين ، إضافة إلى كونه يرى بالعينين بوضوح ، لتبينا أن هذا العنصر هو البرق الذى ابتدأ السياق بذكره ، إن هذا العنصر ليس السحاب ، لأنه مظنة أن يرى فى كل حين ، شأنه فى ذلك شأن الشمس والقمر والليل والنهار . وليس الصواعق ، لأنها لا تكاد ترى بالعين ، ثم إنها قليلة الحدوث . وليس الرعد لأن وسيلة الإحساس به الأذن ، بينما يتجه القوم بأبصارهم إلى أعلى ، إلى السماء .

ولو أننا نظرنا إلى البرق ، وهو عبارة عما يرى من النور اللامع ساطعاً من خلال السحاب(١) لتبينا أن للإنسان موقفين رئيسيين منه ، مرتبطين بحال الذى يرى البرق ويفهم ما يدل عليه من مطر . فإن كان الإنسان مستعداً لتلقى المطر ، استقبل كل ملابساته ، بما فى ذلك الصواعق أحياناً ، بشىء من الارتياح . وإن كان غير مستعد لتلقى المطر ، استقبل السحاب ، فضلا عما يرتبط به من رعد وبرق وصواعق ، بشىء كبير من عدم الارتياح . وإلى هذين الموقفين المختلفين أشار صدر الآية الكريمة التقريرى « هو الذى يريكم البرق » .

ولما كان الطابع الغالب على السورة الكريمة ، الجمع بين الصفات المتقابلة ، ولما كان هدف الآيات الكريمة الأول ، كفار مكة ، القساة القلوب ، الغلاظ الأكباد ، لذلك سارت الآية الكريمة ، وفق الاتجاه العام للسورة كما أنها راعت طبيعة الذين يهمهم الحديث فى المقام الأول . فهى من ناحية ، أشارت إلى الصفتين المتقابلتين ، الخوف والطمع ، الترهيب

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢-٥٠٤ .

والترغيب . وهى من ناحية أخرى . قدمت الخوف والترهيب على الرجاء والطمع والترغيب . قالى تعالى : « هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً » .

ولا شك أن البرق فى السحاب آية من آيات الله تعالى الدالة على قدرته المطلقة عز وجل . وبديهى أن السحاب هو أكثر متعلقات البرق ، لأن البرق يخرج منه . لذا نجد الآية الكريمة تشير إلى هذا السحاب من الزاوية التى تخدم غرض الآية الكريمة فى الدلالة على قدرة الله تعالى المطلقة . فهى تتناول السحاب من جهة إنشاء الله تعالى له ابتداء من العدم . وفى هذا لفت لانتباه كفار مكة إلى ما ينكرون دائماً من قدرة الله تعالى على إنشاء الخلائق مرة أخرى من العدم ، على الرغم من أنهم يعترفون بأنه عز وجل هو الذى أنشأهم النشأة الأولى . وبديهى أن القادر على الابتداء قادر على الإعادة ، نقول هذا بلغتنا نحن البشر العاجزين المقهورى الإرادة . وإلا فالأعمال كلها رهن قول الفعال لما يريد « كن فيكون » وفوق ذلك فإن الآية الكريمة تنص على نوع معين من السحاب ، هو أكثر أنواع السحاب قدرة على أن يرتبط به كل من الخوف والطمع الشديدين . إنه السحاب الثقال المفعم بالماء والذى يكاد يلامس الأرض لثقله ، والذى أشار إلى مثله الشاعر(١) أوس بن حجر :

دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح

إن السحاب فى رأى البعض اسم جنس ، يذكر ويؤنث ويفرد ويجمع(٢) والواحدة سحابة(٣) وفى رأى البعض الآخر جمع والمفرد سحابة(٤) على غرار القول : امرأة كريمة ونساء كرام(٥) ويجمع أيضاً على سحب وسحائب(٦)

---

(١) جاء البيت ضمن قصيدة فى ديوان عبيد بن الأبرص والمسف الشديد الدنو من الأرض والهيدب ما تدلى من السحاب .

(٢) البحر المحيط : ٥ - ٣٧٤ .

(٣) انظر الكشاف : ٢-١٦١ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٣-٨٢ .

(٥) الكشاف : ٢ - ١٦١ .

(٦) تفسير القرطبى : ٣٥٢٤ .

وعموماً فإن لفظة ثقال ، توافق رءوس الآى فى السورة الكريمة . وحينما يكون السحاب ، هكذا فى صيغة الجمع ، ثقالا ، بمعنى أنه مفعم بالماء ، فذلك أدعى لأن يكون موقف الإنسان منه وفق استعداده له وعدم استعداده له لأن يكون أكثر رغبة أو رهبة . ويرتبط بالاستعداد وعدم الاستعداد إقامة الإنسان وسفره ، حاجته المباشرة للمطر وحاجته غير المباشرة . فمن الجائز أن يكون شعوره بملابسات ذلك النوع من السحاب ، أقرب إلى الخوف ، منه إلى الطمع ، والعكس صحيح بطبيعة الحال . وبديهى أن فى الآية الكريمة — وكذلك فى الآية التالية كما سنرى — نوعاً من البلاغة بالحذف . وتقدير الكلام : وهو الذى ينشىء السحاب الثقال . وحينما يتضح لكل ذى لب أن الله تعالى وحده هو المتفرد بخلق البرق والسحاب ، وبتدبيرهما وتسخيرهما ، فمعنى هذا بداهة أنه عز وجل هو وحده الخليق بأن يعبد وحده لا شريك له . وقد نصت الآية الثانية على هذا الهدف بصريح اللفظ .

ويرتبط خوف الناس وطمعهم فى الآية الكريمة ، بكل ملابسات السحاب والمطر ، من صواعق ورعد وبرق . وقد أشار أبو الطيب المتنبى إلى نوع من الرجاء والخوف مرتبط بالمطر يقول :

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى يرجى الحيا منه وتخشى الصواعق(١)

ويقول الزمخشرى(٢) بشأن الخوف والطمع فى الآية الكريمة « ومعنى الخوف والطمع أن وقوع الصواعق يخاف عند لمع البرق ، ويطمع فى فى الغيث » .

ونحن إذا تأملنا البرق ، تبينا أنه عبارة عن نور يخرج من خلل السحاب ، هكذا شاءت إرادة الله تعالى خالق البرق ، أن يكون البرق نوراً ، لذا هو يرى بالعين مرتبطاً بالسحاب . وها هى ذى الآية الكريمة ، تشير إلى قدرة الله تعالى المطلقة ، والتى تتمثل فى خضوع البرق لإرادته عز وجل ، فى

---

(١) البحر المحيط : ٥ - ٣٧٤ . وانظر الكشاف ٢-١٦١ والتبيان شرح الديوان للعكبرى ٢ - ٣٤٦ .

(٢) الكشاف : ٢ - ١٦١ .

طبيعته وحدود انتشاره . كما تتمثل فى السحاب الذى ينشئه رب العزة إنشاء ويوجده من العدم ، والذى يقوم بالهدف الذى من أجله خلق . ونستطيع حينما نتأمل طبيعة كل من البرق والسحاب المرتبط بهما خوف الإنسان وطمعه ، بناء على استعداد الإنسان لتلقى المطر أو عدم استعداده ، أن نتبين طبيعة الدور الذى يقومان به إيجاباً أو سلباً ، لدلالتهما على ما يئول إليه السحاب من إمطار أو إخلاف . إن كلا من البرق والسحاب ، اللذين يريان بالعين ، يرتبطان بشىء ثالث هو المهم فى الأمر ألا وهو المطر . وكأن الذى يجمع بين شتى الآية الكريمة أن كلا العنصرين يرى بالعين ، وأنهما يؤديان إلى نتيجة واحدة وإلى ثمرة معينة هى المطر . إن البرق ينبغى أن يرى . هكذا شاءت إرادة الله تعالى . وإن السحاب ينبغى أن يرى ، هكذا شاءت إرادة الله تعالى . وإن كلا منهما ينبغى أن يقوم بالدور الذى خلق من أجله وهو إنزال المطر الذى يرتبط به خوف الإنسان ورجاؤه بناء على عدم استعداده لاستقباله أو استعداده . قال تعالى : « **هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشىء السحاب الثقال** » .

وهذه هى الآية الكريمة التالية . قال تعالى : «**ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحـــال** » . إذا كنا تبينا أن آيتى السماء السابقتين ، البرق والسحاب ، تريان بالعين ، فإن آيات السماء فى هذه الآية الكريمة ، ترتبط بها أصوات ، وهذا يعنى أن الرباط الذى يربط هو الصوت الذى يتوسل لسماعه بحاسة السمع . فثمة رباط مودة بين الإنسان وبين بعض مظاهر الطبيعة يتوسل إليها بالعين أحياناً وبالأذن أحياناً أخرى وهكذا . ولا يخفى أن جدل الكافرين فى الذات العلية يتوسل بالصوت كذلك . فالرباط محكم بين آيات الله تعالى فى السماء وفى الأرض ، لأن قدرة الإنسان على البيان آية من آيات الله تعالى الدالة على قدرته . جاء فى سورة الروم(١) قوله تعالى : « ومن آياته خلق

---

(١) آية : ٢٢ .

السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين » .

فما معنى التسبيح بحمد الله تعالى ؟ وما معنى تسبيح الرعد ؟ أما التسبيح بحمد الله تعالى فمعناه القول : سبحان الله والحمد لله . ولفظة سبحان تعنى تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته ، ومن ذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة من جدل كفار مكة وخصامهم المصطفى صلى الله عليه وسلم فى ذات الله تعالى وفى صفاته . ولفظة الحمد تعنى الثناء على الله تعالى بما هو أهله .

وأما تسبيح الرعد ، فقد جاء فى البحر المحيط(١) بشأنه : « فإن كان مما يصح منه التسبيح فهو إسناد حقيقى . وإن كان مما لا يصح منه فهو إسناد مجازى » ونحن إلى كون الكلام على الحقيقة أميل ، تمشياً مع قوله تعالى فى سورة الإسراء(٢) : « تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن . وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا » . فكل ما فى السماوات والأرض مما له صوت وما ليس له صوت ، يسبح بحمد الله تعالى قائلا : سبحان الله وبحمد الله . ولما كان الرعد ذاته يتكون من ذلك الصوت الأجش الجهورى ، فمعنى هذا أن طبيعته هى التسبيح بحمد الله تعالى « ومعنى قوله : ويسبح الرعد بحمده . ويعظم الله الرعد ويمجده فيثنى عليه بصفاته وينزهه مما أضاف إليه أهل الشرك به ، ومما وصفوه به من اتخاذ الصاحبة والولد ، تعالى ربنا وتقدس »(٣) .

وعلى نحو البلاغة بالحذف فى الآية الأولى ، توجد بلاغة بالحذف هنا ، بشأن الجزئية الثانية تقديره : ويسبح الملائكة من خيفته . قال تعالى : « يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » . ولما كان الملائكة لا يعصون

---

(١) ٥ - ٣٧٤ .

(٢) آية : ٤٤ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٣ - ٨٣ .

الله تعالى ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فنى إمكاننا أن نفهم الخيفة هنا بمعنى الهيبة والخشوع والخوف . « قال ابن عباس : إن الملائكة خائفون من الله ، ليس كخوف ابن آدم ، لا يعرف واحدهم من على يمينه ومن على يساره ، لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب »(١) .

وإذا كان التسبيح والتحميد يرتبطان بموقفى الرجاء والخوف ، وإذا كان لفظ الحمد أكثر اتجاها إلى موقف الرجاء والشكر ، وكان لفظ الخفية أكثر اتجاها إلى الخوف والضراعة ، فمعنى هذا أن هذه الآية الكريمة التى جاءت الإشارة فيها إلى الحمد والخوف ، تأخذ بنصيبها — على غرار الآية السابقة — من الطابع الغالب على آيات السورة الكريمة ، التى تجمع بين الصفات المتقابلة . ولا يخفى أن القول « ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » أى « وتسبح الملائكة من خيفة الله ورهبته »(٢) ذو علاقة قوية بصفتى الخوف والطمع أو الرجاء ، اللتين نصت عليهما الآية الكريمة السابقة بصريح اللفظ . وإن الشىء ذاته يقال عن الجزئية الكريمة التى تتحدث عن عن الصواعق . قال تعالى : « **ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء** » . إن الصاعقة ، وهى عبارة عن نار تخرج من السحاب ، ذات صوت رهيب ، تجمع بين العديد من الصفات الموزعة على آيات السماء السابقة ، وتضيف إلى ذلك جديدا . إنها عبارة عن نار تخرج من السماء ، فيرتبط بها إذن النور المرئى ، الذى يتكون منه البرق الخارج من السحاب كذلك . ولا يخفى أن السحاب يرى . وإذا كان للرعد صوت فإن للصاعقة صوتا . وتضيف الصاعقة جديدا ، بأنها عبارة عن نار محرقة ، وبأن صوتها يفوق الرعد مرات ومرات . هذا إلى أنها أسرع من كل من الرعد والبرق السريعين بطبعهما . إن الله سبحانه وتعالى خالق السحاب الثقال والرعد والبرق القيوم عليها ، هو خالق الصواعق القيوم عليها . وهذه الصواعق الخيالية التكوين والسرعة والحرارة ، خاضعة لإرادة الله تعالى ، الذى خلقها ، فهو عز وجل

---

(١) تفسير القرطبى : ٣٥٢٤ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٣ - ٨٣ .

الذى يرسلها فيصيب بها من أجل الإحراق من يشاء إن أراد العقاب ، أو لا يصيب إن أراد التخويف ، بقصد حمل الناس على العودة إلى جادة الطريق . وهانحن أولاء أمام الصفتين المتقابلتين تطبعان الآيتين الكريمتين بطابعهما ، صفتى الخوف والرجاء . وقد نصت الآية الكريمة على إصابة الصواعق لمن يشاء الله تعالى إصابته ، لأن كفار مكة ، الذين يعنيهم الأمر فى المقام الأول ، بحاجة إلى مثل هذه الطريقة العنيفة فى التعبير . بل إن القسم الأخير فى الآية الكريمة ، يخص هؤلاء الكافرين المجادلين فى ذات الله تعالى وصفاته ، من إشراك غيره معه إلى إنكار القدرة على إعادة الحياة إلى الخلائق يوم القيامة ، إلى الزعم بأن الملائكة بنات الله « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا » .

إن هذا الجدل العقيم الذى يجهل أصحابه خطورته ، يكاد ينزل منزلة الرعد والصواعق . بل يكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . والعجيب أن الإنسان يتورط فى هذا التخبط والحيرة وهو الذى من الله تعالى عليه بنعمة العقل ، بينما تفرده عز وجل بالحمد والثناء ، المخلوقات الأخرى التى ربما لا يكون لديها عقل ولا إرادة ، كالرعد مثلا الذى نصت عليه الآية الكريمة .

إن واجب كفار مكة أن يعودوا إلى جادة الصواب ، مستفيدين من آيات الله تعالى فى السماوات والأرض ، ومن كبرى آيات الله تعالى ، القرآن الكريم الذى أنزله الله تعالى على خاتم الأنبياء والمرسلين .

إن كفار مكة فى جدلهم ، يظنون أنهم يحسنون صنعا ، ويجهلون ، هم وسواهم ، أن الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل ، وأنه يستدرجهم من حيث لا يعلمون ، ويملى لهم مع أن كيده عز وجل متين . وإلى ذلك أشار قوله تعالى : « **وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال** » « والمحال : المماحلة . وهى شدة المماكرة والمكايدة . ومنه تمحل لكذا ، إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه . ومحل بفلان إذا كاده وسعى به إلى السلطان... والمعنى

أنه شديد المكر والكيد لأعدائه ، يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون »(١)
إن هؤلاء الكفار يجادلون فى الله « حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث وإعادة الخلائق بقولهم : من يحيي العظام وهى رميم . ويرون الوحدانية باتخاذ الشركاء والأنداد . ويجعلونه بعض الأجسام المتوالدة بقولهم : الملائكة بنات الله فهذا جدالهم بالباطل »(٢) .

إن الآية الكريمة تشير إلى أن الجماد ، والمفروض فيه أنه لا يعقل ، يسبح بحمد الله تعالى . وقد اتخذ الرعد رمزاً لذلك ، باعتبار أن الحديث يتصل بآيات الله تعالى فى السماء . وإذا كان الرعد يسبح بحمد ربه ، وكان هذا التسبيح هو كل ما يصدر عن الرعد ، بل هو كل الرعد ، وهل الرعد سوى ذلك الصوت المنبعث من السماء ساعة تغطيها السحب ، فمعنى هذا أن تسبيحه وحمده يمكن أن يقال عنه إنه يقف على مفترق طريق الخوف والرجاء ، لأنه باختصار : جماد . وإن كان والحق يقال ، بسبب ذكر الحمد صراحة ، هو أقرب إلى الرجاء والشكر . أما الملائكة التى تقوم بتسبيح الله تعالى فهى تصدر فى تسبيحها عن خشية لله تعالى وهيبة ، وخوف ، وهى التى لا تعصى الله تعالى بطبعها وتفعل ما تؤمر به . وإن هذه الطاعة المطلقة لله تعالى ، تفهم من خضوع الصواعق لإرسال الله تعالى وفعلها ما أريد منها . ونستطيع أن نفهم أننا بصدد وحدة تنظم هذا الكون ، هى وحدة التسبيح بحمد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له . يستوى فى ذلك الجماد الذى لا يحس فى عرفنا ولا يعقل ، والملائكة مفردو الإرادة . فأين يقع جنس الإنسان الذى يمتاز بالعقل والإرادة ، من هذه الوحدة التى تنتظم الوجود ؟ ما الذى قام به هذا الإنسان تجاه هدف العبادة الأسمى الذى من أجله خلق فى أحسن تقويم ، والذى سخر له كل ما فى السماوات وما فى الأرض ؟ إن الجواب تبينه فى الآية الكريمة التى تعرض لجنس الإنسان الكفور للنعم ، المتمثل فى كفار مكة ، الذين يجادلون وحدانية الله تعالى وقدرته ، الذين يلغطون فى ذات الله تعالى وصفاته .

---

(١) الكشاف : ٢ - ١٦٢ . وانظر البحر المحيط : ٥ - ٣٥٨ .
(٢) الكشاف : ٢ - ١٦١ . وانظر البحر المحيط : ٥ - ٣٧٥ .

إن كلا من الجماد والملائكة ، ينتفع من قدرته على التعبير فى سبيل عبادة الله تعالى وحده لا شريك له . أما الإنسان الكفور بالنعم ، فإنه يبدد هذه الطاقة ، ويسىء استعمال هذه النعمة ، إذ أن نتيجة جداله بالباطل تعود عليه بالويل والثبور وعظائم الأمور . وإذا كان القرآن الكريم ، قد صرح فى غير ما موضع ، بأن هذا النوع من الناس كالأنعام ، بل أضل سبيلا ، فإنا نقول فى ضوء كون الجماد يسبح بحمد ربه ، بينما يجحد الإنسان ذلك ، بأن هذا النوع من الناس الذى هو أضل من الأنعام سبيلا ، يكاد يكون أقل رتبة من هذا الجماد الذى يسبح بحمد ربه والذى رمز له بالرعد فى الآية الكريمة ، وأن الإنسان لا يكون خليقاً بهذا الاسم ، إلا إذا حقق الهدف الذى من أجله خلق ، بأن يفرد الله تعالى ذا الجلال ، المتفرد بالكمال ، بالعبادة وحده لا شريك له . يقول الأستاذ محمد قطب فى منهج التربية الإسلامية(١) إن الإسلام يعقد صداقة قوية بين الكون والإنسان . صداقة الأخوة فى الصدور عن الله — وقد كشف العلم الحديث عن وحدة البناء فى الكون والحياة والإنسان — وصداقة العبادة المشتركة والتسبيح المشترك لله . وصداقة الإحساس بتسخير الكون لمنفعة الإنسان » وكأن واجب الإنسان حينما يسمع صوت الرعد مثلا ، أن يحمله ذلك على محاولة الاقتراب أكثر منه عز وجل بالتسبيح بحمده ودعائه . وإن لنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة « بلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع صوت الرعد الشديد قال : اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك »(٢) و « عن أبى هريرة رفع الحديث أنه كان إذا سمع الرعد قال : سبحان من يسبح الرعد بحمده »(٣) .

ونتحول إلى الآية الكريمة التالية . قال تعالى : **له دعوة الحق ، والذين**

---

(١) ص ١٧٨ . الطبعة الثانية .

(٢) تفسير الطبرى : ١٣ - ٨٣ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٣ - ٨٣ .

يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » .

يبدو من النظرة الأولى للآية الكريمة ، أنها تتحدث عن شيئين ، عن دعوة الحق التي تتبين أبعادها بتأمل بقية الآية الكريمة ، ودعوة غير الحق ، أي دعوة الباطل التي هي في الحقيقة نصيب الآلهة التي تعبد من دون الله تعالى والتي يدعوها المشركون . وهذا معناه أن الآية الكريمة تسير في ذات الاتجاه الذي يطبع السورة الكريمة بطابعها ، طابع الصفات المتقابلة .

ولا يخفى أن الضمير في قوله تعالى : « له دعوة الحق » يعود بالاجماع على الذات العلية . والمعنى أن دعوة الحق له عز وجل وحده لا شريك له . ونستطيع أن نفهم من سياق الآية الكريمة أن المراد بالحق نقيض الباطل . فلله عز وجل كلمة الصدق وكلمة الحق . إنها كلمة التوحيد وشهادة ألا إله إلا الله(١) لأنه جل وعلا هو المتفرد بالخلق والأمر ، فهو الذي يستحق وحده أن تكون له كلمة الحق ودعوته . إن كلمة الحق ينبغي أن تكون له لأنه هو وحده الحق . وإن دعوة الحق ينبغي أن تتجه إليه لأنه هو وحده القادر على أن يستجيب للداعي ويجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعل عباده خلفاء الأرض . وإن الخلق حينما يشهدون بشهادة التوحيد ويعبدونه وحده عز وجل ، ويدعونه وحده لا شريك له ، فإنهم بكل ذلك يحققون الهدف الأسمى الذي من أجله خلقوا . وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له . فما خلق الله تعالى الخلق إلا ليعبدوه وحده لا شريك له . قال تعالى : «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»(٢) .فإذا انحرف الناس في مجموعهم ومنهم كفار مكة ، عن هذا الهدف ، وتنكبوا الوسيلة التي توصل إلى الغاية الحميدة ، فمعنى هذا أن دعوتهم هي الباطل ، لأنهم انصرفوا عمن يستحق وحده لأن يعبد ويدعى ، إلى سواه ممن خلق . وقد بين بقية الآية الكريمة عجز تلك الآلهة التي يعبد المشركون من دون الله تعالى ويدعون . قال تعالى :

---

(١) انظر هنا البحر المحيط : ٥ - ٣٧٦ . وتفسير ابن كثير : ٥ - ٥٠٧ .

(٢) الذاريات : ٥٦ .

« والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » .
إن اسم الموصول « الذين » يعود إلى الآلهة المعبودة من دون الله تعالى ، والتي يفهم ضمناً أن لها دعوة الباطل . والتقدير : والآلهة التي يدعو المشركون من دون الله .

ومما يلفت نظرنا في هذا القسم استعمال لفظه دون دليلا على الآلهة التي تعبد من دون الله تعالى . والمعروف أن لفظة « دون » بالضم ، هي نقيض لفظة « فوق » وكأن اختيار اللفظ ذي المعنى الذي يدل على ما سفل وتدنى ، ليوحي بالمكان الذي ينبغي أن توضع فيه هذه الآلهة العاجزة عن دفع الضر فضلا عن جلب النفع والتي تعبد من دون الله تعالى . والمعروف أن لفظة دون يدخل عليها حرف الجر « من » وكذلك « الباء »[1] وقد استعملت لفظة دعاء دليلا على العبادة في المواضع الثلاثة في الآية الكريمة ، لأن الدعاء هو مخ العبادة ، وإذا كان الدعاء في قوله تعالى : « له دعوة الحق » يعني أن الله تعالى هو وحده الذي ينبغي أن يتجه إليه الدعاء ، فذلك هو الدعاء الحق ، لأنه عز وجل هو وحده المستحق لأن يعبد ، فإن الدعاء في القول : « والذين يدعون من دونه » ينتقل إلى دعاء المشركين لهذه المعبودات من دون الله تعالى ، كي تكشف عنهم ضراً أو تجلب لهم نفعا . وأنى لهذه الآلهة المعبودة ضلالا أن تجيب داعيها ، وهي العاجزة عن أن تدفع عن ذواتها الضر فضلا عن أن تجلب النفع . وإن السياق ليضرب مثلا واقعياً لعجز هذه الآلهة عن أن تجيب الداعي ، والتي عبرت عنها سورة فاطر[2] بالقول : « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، ذلكم الله ربكم له الملك . والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير » .

---

(١) انظر القاموس « دون » .
(٢) آية : ١٣ ، ١٤ .

وهذا هو المثل . قال تعالى : « والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى المـاء ليبلغ فاه وما هو ببالغه » .

نحن فى هذه الآية الكريمة بصدد نوعين من العباد . الأول هو الذى يسير فى الطريق الصحيح الموصل إلى النهاية الحميدة . وهؤلاء هم أصحاب دعوة الحق الذين يشهدون ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والذين يدعون الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له فى السراء والضراء . إنهم يسيرون فى الطريق الصحيح الموصل إلى النهاية الحميدة التى يريدون الوصول إليها بعون من الله تعالى وتوفيق ، لأنهم يعبدون الله تعالى ذا الجلال المتفرد بالكمال ، صاحب الخلق والأمر ، القادر على أن يجيبهم حينما يدعون . وقد قال عز من قائل : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين »(١) . وقال : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون»(٢) . والثانى هو ذلك النوع الذى يدعو الآلهة العاجزة التى يعبد من دون الله تعالى . إن هذا النوع يسير فى الطريق الخاطئ الذى لا يوصل إلى الهدف المنشود ، بل إلى النار وبئس القرار . وإن الآية الكريمة لتعطينا المثل الذى يدل على ذلك الطريق الخاطىء المقطوع عن النتيجة الحسنة التى يظن القوم أنهم سائرون تجاهها .

إن مثل هؤلاء القوم الذين يدعون الآلهة العاجزة بأن تجلب لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضراً ، مثل ذلك العطشان الأحمق الذى يقف على شفير البئر باسطاً كفيه إلى المـاء طالباً منه أن يتحول إلى كفيه كى يتمكن من إيصاله إلى فيه لدفع أذى العطش وتحقيق نفع الارتواء ولذته « والكاف » (كباسط) فى موضع نصب أى مثل استجابة »(٣) إن الطريق الذى يسير فيه هذا العطشان الأحمق لا يوصله إلى ما يريد ، بل يوصله إلى الهلاك ،

---

(١) غافر : ٦٠ .

(٢) البقرة : ١٨٦ .

(٣) البحر المحيط ٥/٣٧٧ وقد سقط من أثناء الطبع

لأنه أخطأ الوسيلة الصحيحة والطريق الصحيح . إن الوسيلة الصحيحة والطريق الصحيح أن يكون لديه الرشاء الذى يمكنه أن يغترف غرفة من ذلك الماء الملحى ، كى يتسنى له أن يرتوى ، بل أن يتضلع من الماء العذب النمير ، وليس فقط أن يدفع أذى العطش وخطر الهلاك المحدق المحقق .

إن صنيع هذا العطشان الأحمق ، وهو يقف على شفير البئر باسطاً كفيه دليل العجز وقلة الحيلة وضعف الهمة ، دليل الذل والخنوع . إنه يبسط كفيه الاثنتين معاً ، دليلا على أن العطش قد بلغ منه كل مبلغ والعجز قد تمكن منه واستبد به ، وهو فى بسطه كفيه يدعو من ؟ إنه يدعو الماء الجماد الذى هو فى حكم الأموات ، بأن ينتقل من قاع البئر إلى كفيه كى يطفىء غلته . وهل يسمع هذا الجماد ؟ ولو فرض أنه سمع هل يستطيع أن يجيب ؟ لا بطبيعة الحال . إن هذا هو واقع كفار مكة . إنهم يريدون الخير لأنفسهم ، ويحسون فى أعماق أنفسهم بالحاجة الماسة لذلك ، تماماً كما أحس العطشان بذلك . ولكن هؤلاء الكفار على غرار باسط كفيه إلى الماء الجماد . إنهم يذهبون إلى الآلهة العاجزة التى يعبدون من دون الله ، تعالى ، فيدعونها طالبين منها دفع الضر أو جلب النفع . وذلك على غرار باسط كفيه إلى الماء كى يدفع عنه خطر الموت المحقق . وربما تخيل أنه بعد دفع العطش ، يستطيع أن يفكر فى جلب نفع ، بأن يستكثر من الماء ، استكثار كفار مكة ، بعد طلب دفع الضر ، من طلب جلب النفع .

وإذا كان باسط كفيه إلى الماء قد أخطأ السبيل ، وبالتالى ضاع الهدف المنشود ، لأن الوسيلة الصحيحة أن يدلى بدلوه ، فإن الشىء ذاته يقال عن كفار مكة ، الذين أخطأوا السبيل ، وبالتالى ضاع الهدف المنشود . إنهم يدعون هذه الآلهة العاجزة عن دفع الضر ، عجز ماء البئر عن دفع ضر باسط كفيه إليه . ولا شك أن كلا الفريقين أحمق . فلو أننا وقفنا على شخص عطشان ، يقف على شفير بئر ، طالباً من الماء أن يرتفع إليه ، لما اكتفينا بوصفه بالحمق ، بل بالجنون ، لأن وسيلة استخراج الماء لا تحتاج إلى عبقرية خارقة . خاصة وأن كل الناس ، غير الحمقى وغير